حياة ولكن

مجموعة قصصية

علي العلي

دار المحرر الأدبي

obeikandl.com

obeikandl.com

«إنَّ الـنَفْسَ إذَا كَانَـتْ عَلَى حَـالِ الاعتِـدَالِ فِي قَبُـولِ الخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَمْحِيصِ وَالنَظَرِ حَتَى تُبَيّنَ صِدْقَهُ مِنْ كَذِّبَهُ، وَإِذَا خَامَرَهَا تَشَّيُعٍ لِرَأْيٍ أَوْ نِحْلَةٍ قَبِلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الأَخْبَارِ لأَوَّلِ وَهْلَـةٍ، وَكَانَ ذَلِـكَ المَيْـلُ وَالتَشَّـيُعُ غِطَـاءً عَلَى عَـيْنِ بَصِـيْرَتِهَا عَـنْ الانْتِقَادِ وَالتَمْحِيصِ، فَتَقَعَ فِي قَبُولِ الكَذِّبِ وَنَقْلِهِ».

«أَبُو زَيْدٍ وَلِيُّ الدِيْنِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّـدِ بْـنِ مُحَمَّـدٍ، المَشْـهُورُ بِـابْنِ خَلْدُونَ الحَضْرَمِيُّ الإشْـبِيْلِيُّ».

تَنْوِيهٌ:

هَـذِهِ القَصَـصَ التِي بِأَيْـدِيكُمْ أَيُّهَـا القُـرَّاءُ الأَعِـزَّاءُ قَـدْ وُلِدَتْ مِنْ رَحِمِ مُشْكِلاتِ وَمُعَانَاةِ كُلِّ الْمُجْتَمَعَاتِ، فَلَمْ أَتَنَـاوَلْ إلا بَعْـضَ أَقَاصِـيْصٍ مِنْهَـا، أَمَّـا الأُخْـرَى فَـلا تَسَعْهَا مُجَلَّدَاتٌ كَامِلَةٌ، فَنُقِشَتْ عَلَى صَفْحَاتِ حَيَاتِنَا وَجُدْرَانِ قُلُوبِنَا، مِنْهَا مَا عَايْنَّاهُ مُعَايَنَةً كَامِلَةً، وَأُخْرَى سَمِعنَا بِهَا، وَأْغَلَبَهَا عِشْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا.

openkandl.com

مَدِينَةُ المَاضِي

قَطَعَتْ الشَيخُوخَة أجنِحَتَه وَألقَت بِه بِزَوَايَا عُزلَة خَانِقَة قَد اضطَرَتُه لِلبَحث عَن مَنَافِذ لِلخَلاص أو طُرُقَات تُعِيدُه لِلحَيَاة بِإشرَاقِته المَعهُودَة، قَرَر الاندِمَاج مَع النَاس وَالخُرُوج مِن وَحدَته لَعَلَه يَجِد مُتَنَفَسَاً لِكُربَتِه أو يُصَافِح يَدَاً تُنقِذُه مِن بَرَاثِن أحزَانِه بَعدمَا هَجَر المَدِينَة حِيناً مِن الدَهر.

بَدَأ يَتَنَقَّل بِشَوَارِع المَدِينَة بِقَوَائِم شِبه مَشلُولَة مُرتَعِشَة يُسنِدُهَا بِعَصَي يَتَوَكَّأ عَلَيهَا وَيَتَسَكَّع بِمَدِينَة الأمس التِي هَجَرتهَا الأيَام الجَمِيلَة بِذِكرَيَاتِهَا التِي لا تُنسَى.

مَرَّ بِصَرحٍ عَتِيق لِبِنَايَة كَانَت يَومَاً دَار لِلسِينَمَا تَحَوَّلَت إلى مَعمَّلٍ لِلحَلَوِيَات استَحضَّر أجمَّل الأيَام فِيهَا بِصُحبَّة أعَزّ أصدِقَائِه عِندَمَا كَان شَغُوفَاً مُولعَاً بِعَالَمٍ فَسِيحٍ لِلخَيَال وَالتَصُّوُرَات الجَمِيلَة التِي لا يُنصِفُهَا الوَصف وَتِلك المُتَنزهَات التِي غَيَّرَت الأيَام خَارِطَتَهَا وَمَمَرَاتٍ تَتَجَوَّل فِيهَا أشبَاح النِسيَان وَأقدَام غُرَبَاء لا يَحفَظُوا لَه عَهدَاً كَانَت مَرتَعَاً لِحِكَايَات جَمِيلَة في عَهد الشَبِيبَة الحَالِمَة.

دَخَل أحَد المَقَاهِي وَألقَى بِجَسَدِه الضَعِيف عَلَى كُرسِي بِزَاوِيَة مِن المَقهَى لِتُعِيدُه الذَاكِرة لِصَوت كَوكَب الشَرق الذِي يَصدَّح مِن تِلِفِزيُون المَقهَى وَأصدِقَاء فَرَقَتهُم الحَيَاة وَعَبَثَت بِذِكرَيَاتِهم، اختَفَت هَيبَتَه بِسُحُبٍ مِن الدُخَان المُنبَعِث مِن أفوَاه صِبيَةٍ صِغَارٍ يَتَذَوَقُون الدُخَان بِطَرِيقَة بَهلَوَانِيَة وَيَتَعَمَدُوا أنْ يَنفِثُوا الدُخَان بِاتِجَاه هَذَا الشَيخ الوَقُور وَيَرمُقُونَه بِنَظَرَاتٍ خَفِيَّة لا تَخلُو مِن خُبثٍ فَارتَشَف

قَدَح الشَاي عَلَى عُجَالَة وَذَاكِرَته تَتَصَفَّح الأحدَاث بِصَمت.

انطلَق بِشَوَارِع المَدِينَة بَين أمواج الأجسَاد البَشَرِيَة يَرنُو بِالوُجُوه الشَاحِبَة اللاهِثَة لِتَأمِين لُقمَّة العَيش تَرتَسِم عَلَى مُحَيَاهُم سَطوَّة الأحزَان وَالقَهر وَضَيَاع العُمر بِالأمنِيَات التِي أصبَحَت وَهُنَا لا طَائِل مِن صَرف الوَقت لانتِظَار تَحقِيقَهَا.

أحَسَّ بِعَدَم ارتِيَاح وَاختِنَاق مُتَنَقِلاً بِمَمَرَات وَأزِقَّة المَدِينَة التِي بَدَت في عَينَيه كَإمبرَاطُورِيَة مَهجُورَة لا يَرَى فِيهَا إلا آثَار ذِكرَيَاتِه تَوَسَدَت الضَيَاع.

كَان يَبدُو بِنَظَر الآخَرِين كَرَحَالَّة هَبَط مِن غَيَاهِب البِحَار المَجهُولَة لِيُدَوِّن مَا يَرَاه وَيَحفَظَه بِمَعَالِم مَدِينَة تَتَرَبَّع عَلَى عَرش حُبّه إلى الأبَد، أصَابَه المَلَل مِن جَولَتِه في مَوَاطِئ حَيَاة الأمس وَلِلأسَف بَخِلَت عَلَيه الحَيَاة أنْ يَجِد شَخصَاً يَسمَع هُمُومَه وَشَكوَاه.

تَدُور في ذَاكِرَتِه الهَرِمَة أفكَارٌ طَالَمَا حَلِم بِتَحقِيقِهَا مِن لِقَاء أصدِقَائِه القُدَامَى فَقَرَر الذَهَاب إلى صَدِيقٍ يَملِك دُكَان صَغِير فَوَجَد خَارِطَة المَكَان قَد تَغَيَرَت وَأصبَح مَكَان ذَلِك الدُكَان مَحَلات تُجَارِيَة حَدِيثَة بَعدَمَا أُضِيف إلَيه مَحَلات مُجَاوِرَة أخرَى وَعَرف أنَّ صَاحِبَه قَد مَات مُنذ زَمَن فَغَادَر المَكَان حَزِيناً وَبَعدَهَا قَصَد صَدِيقَاً آخَر في مَحَل بَيع الأشرِطَة الصَوتِيَة فَأخبَرَه صَبِي يَعمَّل في ذَلِك المَحَل أنَّ وَالِدَه أقعَدَه الشَلَل في الفِرَاش مُنذ سَنَة رُبَّمَا يَبحَث عَن وَهَجٍ جَمِيل يَرقُد بِذَاكِرَته يَربِطَه بِمَاضٍ رَائِع ظَلَّ مُشرِقَاً لِمَا فَات مِن عُمُرِه.

كَان يُؤَمِّل النَفس دَائِمَاً بِفِسحَة كَهَذِه لِلإطِلاع عَلَى مَدِينَة لِلأسَف بَدَت أمَام يَقَظَتَه كَمَدِينَة أشبَاح أغلَقَت أبوَابَهَا بِوَجهِه

وَبَخِلَت عَلَيه بِفَرحَة لِقَاء حَلِم بِهَا بِسِنِي غُربَتِه لَقَد أبقَته هَذِه الجَولَة شَخصِيَة نَكِرَة تَتَخَبَّط بِمَتَاهَاتٍ مَجهُولَة تَنسَاب مِن شَفَتَيه كَلِمَات دُعَاء وَتَتَلأْلأ خَلف نَظَارَتِه الطِبِيَة قَطَرَات الدُمُوع الثَخِينَة تَتَدَحرَج بِكُلِّ حِشمَةٍ وَوَقَار عَلَى خَدَيه بِصَمتٍ مُؤَثِر.

قَرَر العَودَة إلى مَخبَأه لِيَتَوَارَى عَن مُوَاجَهة هَذَا العَالَم الغَرِيب بِكُلِّ تَنَاقُضَاتِه عَاد أدرَاجَه إلى مَنزِله بَعد رِحلَة اطِلاعٍ وَتَقَصِّي لِمَدِينَة الأمس التِي أصبَحَت بِعَينَيه غَرِيبَة المَعَالِم مَسَحَت الأيَام ذِكرَيَاتِه مِن مَمَرَاتِهَا بِدُون اعتِذَار، فَرُبَّمَا يَبقَى يَتَصَفَّح ذَاكِرَتَه مَع نَفسِه بِكُلِّ هُدُوء فَهِي أرحَم مِن مُوَاجَهَة وَاقِعٍ مَرِير، انزَوَى عَلَى مَضجَعِه يُطلِّق زَفَرَاتٍ أَلِيمَة مُحرِقَة وَأرخَى أجفَانَه الذَابِلَة لِسُيُول الدَمع المُنهَمِرَة عَلَى ذِكرَيَات أيقَّن أنَّهَا مَاتَت مُنذ زَمَن.

obeikandl.com

مَأْسَاةُ أَبْ

كَمْ هِي مُوجِعَةٌ عَودَتُه, سَيَعُودُ مُرغَماً مَشيَاً عَلَى جِرَاحِ الأيَامِ التِي أذَلَتهُ يَحْمِل آهَاتَهُ وَصَدَى زَفَرَاتَهُ يَحرِق كُلَّ مَا بَقِيَ لَدَيهِ مِن أمَل, نَادِمَاً عَلَى حَيَاتِهِ التِي تَبَذَرَتْ هَبَاءَاً بِتَربِيَةِ أبنَاءٍ جَاحِدُون, يَتَرَنَّح مِن وَخزِ تِلكَ النِصَالِ الصَدِئَّةِ التِي تَجزِل أودَاجَه بِدُون رَحْمَّة.

احتقَرَت السِنُون إنسَانِيَتَه وَتَنَكَّرت لِكُلِّ مَا بَذَلَه مِن إسعَاد عَائِلَةٍ كَان يُعِيلُهَا دَهرَاً, بَعد رَحِيل زَوجَتُه الطَيِّبَة التِي تَرَكَتُه بِفَكِّي مَهَاوِي الرَدَى التِي قَضمَت كُلَّ تَطَلُعَاتِهِ لِحَيَاةٍ أفضَل وَأصبَح فَرِيسَةً لِلبُؤس وَالْمَذَلَّة التِي تَلَقَاهَا مِن زَوجَات أبنَائِه يُمقِتنَه لا لشيء إلا لِكِبَّر سِنهِ وَلازدِيَادِ طَلَبَاتِه هَذَا الْمَصِير الأسوَد الذِي يَتَرَبَّص بِه فَمَنْ يُوقِفُ نَزِيفَ ذَاكِرَتَه الْمُثقَلَة بِالجِرَاح.

تَزَوَّج امرَأةً مُسِنَّة تُقَارِب عُمُرُه لِيَهرَب إلى أعمَاقِ الْهَاوِيَة لِكَونِهَا لا تَتَعَاطَف إلا مَع نُقُودِه التِي ادخَرَهَا لِنِهَايَة العُمْر, نَقَلَته حَيَاتَه الجَدِيدَة إلى رَاحَة البَال الْمُؤَقتَة التِي لَم تَدُم سِوَى سَنَتَين فَقَط حَتَى أُصِيبَ بِمَرَضٍ خَبِيثٍ مِمَّا حَدَا بِهَذِه العَجُوز الشَمطَاء أنْ تُلقِي بِأسْمَالِه إلى الشَارِع غَير مُكتَرِثَة بِمَا يُوَاجِهُه مِن انكِسَارٍ وَضَيَاعٍ مَحتُوم, لَم يَبخَّل عَلَيهَا يَومَاً بِكُلِّ مَا كَان يَملِكُه إلى أنْ أنفَق مَا تَبَقَّى عَلَى عِلاجٍ لا أمَل مِنه لِلشِفَاء, مَارَسَت ذَكَائَهَا الشَيطَانِي لِخَلق الْمَزِيد مِن الألَم لَه وَلَم تَزرَع يَومَاً فَرحَةً وَاحِدَةً فِي قَلبِه.

عَادَ بَائِسَاً يَبحَث بِزَوَايَا ذَاكِرَتِه عَن وَطَنٍ مَهجُورٍ عَن شَبَحٍ أو بَقَايَا خَيَالٍ لِعَائِلَةٍ كَان يَرعَاهَا يَومَاً, عَاد يَطمَح أنْ تُغَيِّر مَا فِي قُلُوبِهِم

مِن قَسوَة لإيوَائِه لِمَا تَبَقَّى مِن عُمُرِه مُستَعطِفاً بِكُلّ إذلالٍ لِكِبرِيَائِه.

وَاجَهَه نَفسُ الْمَصِير مِن الصُدُودِ وَاللامُبَالاةِ وَهَكَذَا تَنَصَّل الأبنَاء مِن وَاجِبٍ مُقَدَّسٍ لِرِعَايَة أبٍ مَرِيضٍ يُحتَضَر بَعد أنْ حَشَرتَه الحَيَاة بِشَقٍ ضَيّق لَيسَ سِوَى الْمَوت أو الْخُنُوع وَالذُلّ عَلَى طَرَفَي نَقِيضٍ لا ثَالِثٍ لَهُمَا في مُعَادَلَةٍ غَير مُنصِفَةٍ لِتَقرِير مَصِيرِه النِهَائِي فَأختَار الْمَوت الْمُرِيح مِن حَيَاةٍ مُقرِفَه مَع قُلُوبٍ لا تُطِيقُه.

تَحَرَرَت إرَادَتَه مِن قُيُودِهَا فَهَاج كَالْمَجنُون يَتَسَكَّع بِشَوَارِع وَأزِقَّة الْمَدِينَة بِآخِر أيَامِه الْمُتَلِئَّة بِالقَهر وَالدُمُوع, يَقضِي مُعظَم أوقَاتَه بِأبوَاب الْمَقَاهِي وَالْمَحَال التُجَارِيَة يَعطِف عَلَيه مَنْ عَرَفَه.

اختَرَقَت قَلبَه الأحزَان وَصَدِئَت ذَاكِرَتِه فَغَدَت أضعَف مِن أنْ تَحمِل بَين طَيَاتِهَا تَارِيخ يَتَمَنَّى أنْ يَنسَاه إلى الأبَد لَقَد فَقَد كُلَّ شَيءٍ إلا نَبَضَات قَلبَه التِي تَتَوَقَّف في أي لَحظَة وَأصبَح رَفِيقٍ غَير مُؤنِس لِلحَيوَانَات السَائِبَة حَيث يُزَاحِمُهَا عَلَى مَرَابِضِهَا فَوق الأزبَال وَفي ظِلال الْهَيَاكِل الْخَرِبَة الْمَهجُورَة.

بَعد أربَعَة أيَام مِن اختِفَائِه عَن عُيُون مَنْ تَعَاطَفُوا مَعَه وُجِدَّت جُثَتَه بِإحدَى الْخَرَائِب بِأطرَاف الْمَدِينَة مُتَوَسِداً نَعلَيه.

كُنتُ مِمَّن حَضَر مَجلِس عَزَائِه الفَخم الذِي أُقِيم بِأُبَهَةٍ وَعَظَمَة لا مَثِيل لَهَا وَكَثرَة الْمُعَزِين مِن أعيَان البَلَد وَوُجَهَاء الْمَدِينَة.

جَلَستُ مَذهُولاً مِن مُفَارَقَات القَدَر وَعَينَيَ تَخترِق نِقَاب النِفَاق وَالرِيَاء وَالكَذِب في عُيُون أبنَائِه الذِين يَتَظَاهَرُون بِالْحُزن العَمِيق.

استَقَرَّت عَينَيَ عَلَى قِطعَة سَوداء كَبِيرَة تُنعِى رَحِيلَه بِأَفخَم الكَلِمَات وَأعمَّق الْمَعَانِي لِلفَقِيد الْمَغفُور لَه وَالِد كُلٌّ مِن فِلانٍ وَفِلان وَفِلان.

الأَفْعَى

بُستَانٌ صَغِير بِأَطرَافِ القَريَة، تَحُفُّهُ الْمِيَاه وَالأشجَار، فَأصبَح كَالوَاحَة الجَمِيلَة، يَغفُو بِخُلوَتِه بَعد أنْ ازدَادَت أقَاوِيل أهل القَريَة عَلَى أنَّه تَسكُنُه أروَاحٌ شِرِيرَة، اعتَبَرَه «طارق» مَلاذَه الهَادِئ وَمَلجَأ لِلسَكِينَة وَسِحر الطَبِيعَة، حَيث يُمَارِس طُقُوس حُرِيَتِه بِسَاعَات طُوَال يَصرِفُهَا بِقِرَاءَة دُرُوسِه العِلمِيَة، إضَافَةً إلى الكَم الهَائِل مِن القَصَص وَالأشعَار وَالرِوَايَات، لَقَد كَان مُثَابِراً وَطَمُوحَاً، يَرتَوِي مِن مَنَابِع الفِكر وَيَلهُو مَع العَصَافِير، وَيُغَنِي مَع الأطيَار وَيَرقُص طَرِبَاً لألحَانِهَا الشَجِيَة، تَسحِرُه رُؤيَة سَعَف النَخِيل وَهُو يُعَانِق نَسَمَات الرِيح الهَادِئَة، يَستَظِل بِظِلال النَخِيل وَيَتَذَوَق ثِمَارَهَا كُلَّمَا أحَسَّ بِالجُوع، تَملأه نَشوَة الشَبِيبَة الثَائِرَة بِكُلِّ انفِعَالاتِهَا، وَيَستَبِيح المَكَان بِفَوضَى تَنَاثُر أورَاقِه وَكُتُبِه بِأرجَاء المَكَان، فَأصبَح البُستَان كَمَكتَب يَحتَضِن خُصُوصِيَاتَه وَجُنُون أفكَارَه وَثَورَة عَواطِفِه الجَامِحَة وَمُتَنَفَسَاً مِن ضَجِيج الحَيَاة وَهُمُومَهَا.

وَفِي أحَد الأيَام مَرَّ بِه فَلاحٌ عَجُوزٌ عَائِدَاً مِن حَقلِه، ألقَى مِعوَلَه وَجَلَس قُرب «طارق» وَبَعد أنْ شَرَب المَاء أشعَل سِيجَارَة رَخِيصَة، يَتَذَوقهَا بِطَرِيقَة سَاحِرَة وَيَنفِث الدُخَان بِكَبِد السَمَاء وَيُصحِبُه بِزَفَرَاتٍ مُحرِقَة وَآهَاتٍ عَمِيقَة، مِمَّا أثَار انتِبَاه «طارق» فَسَألَه:

.مَا الذِي يُقلِقُك يَا شَيخ؟! .لَقَد أثَار هَذَا المَكَان ذِكرَيَاتي، وَأيَام شَبِيبَتِي عِندَمَا كُنت فَرِحَاً أرفِل بِصِحَّة جَامِحَة بَين هَذِه البِقَاع،

وَتحدِيداً هُنَا كُنت ألتَقِي مَنْ أَحَبَّهَا قَلبِي وَاختَارَتهَا رَوحِي، فَكَم غَنَينَا مَعَّاً عَلَى ضِفَاف ذَلِك النَهر.

.وَأشَار بِأصبَعِه المُعوَّج وَيَدِه المُرتَجِفَّة.

ـ وَلَكِن يَا وَلَدِي صَدَمَتنِي الحَيَاة بِزَوَاجِهَا مِن رَجُلٍ آخَرٍ بِرَغبَة وَالِدُهَا الذِي كَان يَمقِتُنِي دُون سَبَب.

بَعد صَمتٍ بَدَأ الشَيخ يُرَدد مَقَاطِع غِنَائِيَة لِمُطرِبٍ رِيفِي مَشهُور بِالحُزن، وَبَعد أنْ أنهَى أُغنِيَتَه نَهَض مُستَأذِنَاً بِالانصِرَاف، وَبَعد أنْ مَضَى خُطوَات رَجَع إلى «طارق» قَائِلاً:

ـ تَذَكَّرتُ يَا وَلَدِي أُوَدُّ أنْ أُخبِرَك أمرَاً، إنَّ لِهَذَا البُستَان حِكَايَة قَدِيمَة لِصَاحِبِه الذِي رَحَل عَن الحَيَاة، فَقَد كَان يُرَبِّي أفعَى جَلَبَهَا مِن مَكَان قَصِّي لِتَحرُس البُستَان وَبَعد وَفَاتِه بَقِيَت الأفعَى تَتَرَدد عَلَى البُستَان تَحت دِرَايَة وَأنظَار أهل القَرِيَة وَقَد أثَارَت الرُعب بِالقُلُوب لِضَخَامَتِهَا فَلِذَا أُحَذِرُك مِن هَذِه الأفعَى.

قَال «طارق» مُتَسَائِلاً:

.وَهَل رَأيتَهَا أنْتَّ؟

.لا وَلَكِن أهل القَرِيَة يَقُولُون ذَلِك.

فَأجَابَه «طارق»:

ـ دَعهُم يَقُولُوا مَا يَشَاءُون فَقَد قَالُو الكَثِير مِن الخُرَافَات عَن وُجُود غِيلان وَجِن بِهَذَا البُستَان لِيَمنَعُوا الآخَرِين مِن التَمَتُّع بِسِحرِه.

رَحَل الفَلاح وَهُو لا يَزَال يُغَنِي أُغنِيَتَه الحَزِينَة وَبَقِي «طارق» يُقَلِّب الأفكَار وَلا يُنكِر، لَقَد تَسَلَلَت المَخَاوِف إلى قَلبِه وَمِمَّا تَجلِبُه الأيَام القَادِمَة مِن مُفَاجَآت, اعتَاد «طارق» المَجِيء إلى هَذَا البُستَان

كُل مَسَاء وَفي إحدَى الأُمسِيَات عِندَمَا كَان مُمسِكَاً بِكِتَابٍ حَتَى أفزَعَته حَرَكَة مُرِيبَة بَين الحَشَائِش القَرِيبَة، فَقَفَز مَذعُوراً مِن شَبَح الأفعَى وَإذَا بِه يَقِف أمَام فَتَاة سَاحِرَة الجَمَال كَأنَهَا حُورِيَة سَاقَتهَا الرِيح إلى وَاحَتِه الجَمِيلَة, ابتَسَمَت لَه الفَتَاة وَهِي تَهُزُّ عَصَاهَا قَائِلَةً:

ـ مَا الذِي أخَافَك؟! وَهَل أنَا قَبِيحَة إلى دَرَجَةٍ أثَارَت خَوفَك؟ أم اعتَقَدتَنِي جِنِيَّةٌ جِئتُ لأسلُبُكَ الحَيَاة؟ أو وَحشٌ لأفتَرِسَك؟!

.بَل اعتَقَدتُكِ تِلك الأفعَى المَشهُورَة التِي تَحرُس هَذَا البُستَان.

فَضَحِكَت الفَتَاة وَتَسَاءَلَت قَائِلَة:

ـ وَهَل تُصَدِّق ثَرثَرَة عَجَائِز القَرِيَة الفَارِغَة؟ دَعك مِن هَذِه الخُرَافَات وَلنَتَحَدَّث عَن اختِيَارِك هَذَا المَكَان لِلقِرَاءَة لَقَد أعَدتَّ إلَيه نَبضَ الحَيَاة بَعد أنْ كَان مُوحِشَاً.

فَشَكَرَهَا «طارق» سَائِلاً إيَاهَا:

.مَنْ تَكُونِي أيَّتُهَا الجَمِيلَة؟ لَم يَسبِق لِي أنْ رَأيتُكِ مِن قَبل!

.أنَا ابنَة الحَاج «صالح» وَنَحن حَدِيثِي عَهدٍ بِالقَرِيَة.

.عَرفِتُكِ. هَل أنْتِ «ياسمين»؟

قَالَت مُتَعَجِبَّة:

.وَكَيف عَرِفتَ؟!

ـ مِن مَدِيح فَتَيَات القَرِيَة بِجَمَالِك وَخُلُقِك، وَلَكِن مَا الذِي جَاء بِك هُنَا؟

.أبحَث عَن بَقَرَتنَا المَفقُودَة. فَهَل رَأيتَهَا هُنَا؟

أجَابَهَا «طارق»:

.وَهَل أنَا حَارِسٌ لأبقَارِكُم؟

فَضَحِكَت الفَتَاة مِن مُزَاح «طارق»، وَجَلَسَت بِقُربِه تَتَصَفَّح بَعض أورَاقِه، ثُم رَفَعَت رَأسَهَا نَحوَه قَائِلَة:

.هَل مَازِلتَ خَائِفَاً مِنّي؟

ابتَسَم «طارق» لَهَا وَقَال:

.أنَا الآن بِغَايَة السَعَادَة لِوُجُودِك مَعِي.

فَشَكَرَته بِلُطفٍ وَهِي تَصِف لَه سَعَادَتِهَا بِمُلاقَاتِه حَيث كَانَت كَمَا تَدَّعِي أنَّهَا تُرَاقِب وُجُودَه مُنذ زَمَنٍ وَتَتَمَنَّى أنْ تَلقَاه يَومَاً.

فَقَال «طارق»:

ـ وَقَد تَحَقَّقَت رَغبَتُكِ وَأنْتِ الآن قُربِي فَحَدِثِيني عَمَّا يَجُول بِأفكَارِك.

ـ وَهَل بَقِي شَئٌ مِن الكَلام لأقُولُه لَقَد قُلتُ كُل شَئٍ في قَلبِي وَأخجَلُ أنْ أَقُول المَزِيد.

أجَابَهَا «طارق»:

ـ أنْتِ أجمَّل يَاسَمِينَة رَأيتُهَا بِحَيَاتِي وَأجمَّل هَدِيَة قَدَرَت الأقدَار أنْ لَقَيتُكِ هُنَا.

ثُم سَارَا خُطوَات لِيَستَطلِعَا المَكَان قَبل رُجُوعُهَا مُتَسَائِلاً:

.هَل نَلتَقِي مُجَدَدَاً؟

.دَعهَا لِلظُرُوف.

.هَذِه أعذَار المُنهَزِمِين يَجِب أنْ تُحَدِدِي مَوعِد لِقَاءَنَا.

.وَكَيف أعرِف بِوُجُودِك بَين هَذِه الأدغَال العَالِيَة، وَلَكِن عِندِي فِكرَة.

قَال مُتَعَجِبَاً:

.مَا هِي؟!

ـ احمِـل مَعـكَ مِـرآة صَـغِيرَة وَاصـعَد عَلَى جِـذع نَخلَـة عَالِيَـة، وَاعكِس فِيهَا ضَوء الشَمس السَاطِع عَلَى مَنزِلِي حَتَى أعرِفُ بِوُجُودِكَ.

فَشَـكَرَهَا «طارق» عَلَى هَـذِه الفِكرَة التِي لَم تَخطِر لَـه عَلَى بَال، بَقَّى «طارق» هَائِمَاً مَع صَدَى صَوتُهَا وَكَلِمَاتِهَا الحُلوَّة تَرِنُّ في المَكَان وَبَقَّي مُنتَشِياً بِأحَاسِيس لاتُوصَف.

تَكَـرَرَت اللِقَـاءَات بِحَبِيبَـة القَلـب «ياسـمين» حَيـث امتَزَجَـت مَشَاعِرُه الجَمِيلَة مَع هَذَا المَكَان السَاحِر فَأصبَح مَنبَع الوَجد وَمَلجَأ لِلغَرَام وَنَـدِيم مُـؤنِس لِوِحدَتِـه فَأصبَح عَلَى عَهدٍ لا يَتَرَدَد عَنـه بَعد مُفَارَقَة المَكَان, يَومَاً عِندَمَا دَبَّ اليَأس بِقَلب «طارق» مِن عَدَم مَجِيء حَبِيبَتِـه اسـتَلقَى عَلَى الحَشَـائِش مُغمِضَـاً عَينَيـه حَتَى سَـمِعَ صَـوتَاً لِحَرَكَة الحَشَائِش فَعَلِم بِمَجِيء «ياسمين»، فَتَظَاهَر بِالنَوم حَالِمَاً أنْ تَلمِس «ياسـمين» أطرَاف أصَابِعُه وَتُوقِظُه بِلُطفٍ وَتَـدعُوه لِجَولَـةٍ حَالِمَـةٍ بَـين الحُقُـول، وَلَكِـن الصَـوت ازدَاد وَاقتَـرَب دُون أنْ تُكَلِمُـه «ياسمين» وَبَعد أنْ هَدَأ الصَوت سَمِع فَحِيحَاً مُقرِف، فَفَتَح عَينَيه عَلَى ذَلِك المَشـهَد المُرعِب وَجَـد أفعَى عِملاقَـة مَهُولَـة الشَـكل نَائِمَـة بِقُربِه وَرَأسُهَا مَرفُوع أعلَى رَأسَه وَفَحِيحَهَا قَد اقتَلَع أحشَائَه وَلِسَانَهَا المَشـطُور يَتَلَـوَّى كَالسِـيَاط فَـأحَسَّ بِـوَهَن قَوَائِمِـه وَشُـلَّت أطرَافَـه وَجَمُـد بِمَكَانِه دُون أيَّة حَرَكَة مِن شَأنِهَا قَد تَستَفِز الأفعَى فَتَقضِي عَلَيـه بِلَدغَـةٍ وَاحِـدَة وَرُبَّمَـا تَبتَلِعُـه فَـاكتَفَى بِـالنَظَر إلَيهَـا وَكَأنَّـه يَستَعطِفُهَا وَيَلتَمِس العُذر مِنهَا مِن استِبَاحَتِه البُستَان, بَعد لَحظَاتٍ عَصِيبَة مَرَّت بِـ«طارق» خَفَضَت الأفعَى رَأسهَا وَتَابَعَت طَرِيقَهَا بِكُلِّ هُدُوءٍ بَين الحَشَائِش وَهُو يُتَابِعُهَا بِنَظَرَاتٍ مَذهُولَة.

نَهَض «طارق» وَلَم يُصَدِّق مَا رَآه وَلَكِنَه أدرَك أنَّهَا أفعَى مُسَالِمَة

فَلَم تَتَجَرَّأ عَلَى إيذَائِه وَلَرُبَّمَا مَرَّت سَابِقاً بِقُربِه دُون عِلمِه أثنَاء لَحظَات نَومِه, أصبَح مِن المُلزِم عَلَيه إعَادَة حِسَابَاتِه وَالبَحث عَن مَكَانٍ آخَر رَغم قَسوَة المُعَادَلَة بِفَقد رُؤيَة حَبِيبَتِه «ياسمين» التِي لَم تَتَمَكَّن مِن لِقَائِه في أي مَكَانٍ آخَر, انقَطَع عَن الذَهَاب إلى البُستَان لأيَام طَوِيلَة وَهُو يَعِيش ذِكرَيَات حُبَّه المُمتَزَجَة بِالخَوف وَمُلتَصِقَة بِجَنبَات ذَلِك البُستَان، أخبَرَته إحدَى النِسَاء مِن أقَارِبه عَن رَغبَّة «ياسمين» بِرُؤيتِه في البُستَان وَعِندَهَا اضطَّر لِلذَهَاب.

التَقَى الحَبِيبَان بَعد شَوقٍ وَلَهفَّة لِفِرَاقٍ طَال لأيَامٍ حَيث حَدَثَهَا «طارق» عَن الأفعَى فَضَحِكَت وَلَم تُصَدِقُه، وَلَكِنَه أكَدَّ لَهَا وَبَقِيَا يَبحَثَان عَن سُبُلٍ أُخرَى لِلقَاء وَبَينَمَا هُم يَتَحَدَثَان فَاجَأتهُم الأفعَى بِمَكَانٍ قَرِيبٍ جِداً فَأشَار «طارق» لِـ«ياسمين» ألا تَقُوم بَأيَّة حَرَكَةٍ وَأنْ تَصمُت وَفِعلاً انقَطَعَت الأنفَاس وَأُخرِسَت الألسُن لِسُلطَانِ هَذِه الأفعَى التِي زَحَفَت بِقُربِهِمَا وَتَابَعَت طَرِيقَهَا, تَنَفَّس الاثنَان الصُعَدَاء

وَقَال «طارق»:

ـ هَل رَأيتِ كَم هِي مُسَالِمَة وَهَادِئَة أصبَح لَدَيَّ شُعُور بِالرِضَا وَالحُب لِهَذِه الأفعَى.

قَالَت لَه «ياسمين»:

ـ لا أُصَدِّق مَا رَأيتُ أين تَختَفِي هَذِه الأفعَى؟ وَأين تَذهَب بِكُل هَذِه الضَخَامَة.

انتَهَت تِلك الأُمسِيَة بِمَشَاعِر مُتَنَاقِضَة بَين الحُب وَالفَرَح وَالخَوف وَالحُزن وَالتَرَقُب، وَمَرَّت الأيَام وَتَكَرَرَت اللِقَاءَات بَين الحَبِيبَين حَتَى أصبَح وُجُود الأفعَى مَألُوفاً لَدَيهِمَا مُتَشَوقِين لِرُؤيَتِهَا

وَفي أحَد الأيَام سَمِعُوا فَحِيحَهَا فَذَهَبَا إلَيهَا حَتَى وَقَفَا عَلَى مَقرِبَةٍ مِنهَا حَيث أزَاحَا شِبَاكٍ التَقَّت عَلَى وَسَطِهَا وَهِي تَنسَاب بِكُل هُدُوءٍ وَكَأنَّهَا تَشكُرهُمَا وَبَقِيَا لِلَحظَاتٍ بِقُربِهَا وَكَان «طارق» يَتَمَنَّى لَو يَجرُأ عَلَى لَمسِهَا وَيَمسَح عَلَى رَأسِهَا وَيَعرِف أسرَارَهَا وَيُلَبِي رَغبَاتَهَا وَلَكِنَه يَخشَى المُجَازَفَة, ابتَسَمَت «ياسمين» وَهِي تَقُول:

ـ سُبحَان الله لَقَد انشَغَلنَا جَمِيعَاً بِحُب الأفعَى وَتَنَاسَينَا قِصَة حُبَّنَا.

أجَابَهَا «طارق»:

ـ إنَّ حُبُكِ يَا «ياسمين» تَمَلَكَنِي حَد الجُنُون أتَمَنَى لَو تُحَدِثِي وَالِدَتُكِ بِشَأن حِكَايَتِنَا لِتَكُون مُهَيَأة لاستِقبَال وَالِدَتِي لِقَبُول مُوَافَقَة مَبدَئِيَة.

هَذِه الكَلِمَات أفرَحَت وَأثلَجَت قَلب «ياسمين» التِي تَمَنَّت كَثِيرَاً أنْ تُتَوِّج قِصَة حُبَّهُمَا بِنِهَايَةٍ سَعِيدَة, الأيَام تَمضِي وَالأحدَاث تَتَسَارَع وَالأفعَى أصبَح وُجُودُهَا مَألُوفَاً بَين الحَبِيبَين وَكَثِيرَاً مَا تَزحَف عَلَى أورَاقِه وَكَأنَّهَا تَفهَم مَا يَجُول بِقَلب «طارق» مِن مَوَدَة لَهَا فَكَم بَحَث عَنهَا بِرِوَاق البُستَان وَفي الحُفَر المُظلِمَة عِندَمَا يَفتَقِدُهَا عِلمَاً بِأنَّه لَم يَتَفَوَّه بِأيَّة كَلِمَةٍ لأهل القَرية عَن وُجُودِهَا فَهُم يَتَرَبَصُون بِهَا شَرَاً لِلتَخَلُّص مِن شَبَحِهَا المُخِيف.

ذَات يَوم عِند المَسَاء جَاء «طارق» كَعَادَتِه أمَلاً بِلِقَاء حَبِيبَتِه وَصَدِيقَتِه الأفعَى التِي تَتَلَوَّى أمَامَه عَلَى الحَشَائِش بِكُل وَدَاعَةٍ وَمَوَدَةٍ فَرِحَاً بِهَذِه العَلاقَة الرُوحِيَة مَع أخطَر المَخلُوقَات في الوُجُود, عِند وُصُولِه إلى البُستَان تَفَاجَأ بِالجَمع الغَفِير مِن أهَالِي القَرية وَهُم يَحمِلُون الفُؤُوس وَالمَعَاوِل وَالبَنَادِق في ذَلِك البُستَان, فَرَّق الجَمع

حَتَى وَقَـف عَلَى جَسَـد الأفعَى المِسكِينَة بَعـد أنْ تَمَكَنُـوا مِـن قَتلِهَـا وَقَف حَزِينـاً بَينَهُم وَهُو يَنظُر إلى هَيأتِهَا المُرعِبَة وَلَكِنَه أحَسَّ بِمَشَـاعِر التَعَاطُف وَالحُزن مِن أجلِهَا فَصَاح بِأعلَى صَوتِه:

ـ اسـمَعُوا يَـا أهَـل القَريَـة لَقَـد ارتَكَبـتُم إثمَّـاً بِقَتـل هَـذِه الأفعَى المُسَالِمَة لَقَد كَانَت خَير رَفِيقٍ لِي تُؤنِس وِحدَتِي وَأنَا أتَشَـوَّق لِرُؤيَتِهَا كُل يَـوم وَاعلَمُـوا كَـم أشـعُر بِالرِضَـا عَـن إنسَـانِيَتِي بِقَبُولَهَـا كَمَخلُـوقٍ وَشَـرِيكٍ في الحَيَاة فَكَانَت تَتَصَرَّف بِوَدَاعَـةٍ وَلُطفٍ لَقَـد احزَنتُمُونِي جِداً بِقَتلِهَا.

فَـذُهِل أهَـل القَريَـة لِسَـمَاع كَلِمَاتِـه حَتَى اقتَرَب إلَيـه شَـيخ كَبِير يَسأَلُه:

.وَهَل أنْتَّ يَا وَلَدِي تَعرِف بِوُجُودِهَا؟

.نَعَم مُنذ عِدَة أشهُر.

فَصَمَت الرَجُل حَتَى أمَر ثَلاثَـة رِجَالٍ أقوِيَـاء عَلَى حَملِهَـا خَـارِج البُسـتَان لِـدَفنِهَا, حَمَـل الرِجَـال الأفعَى وَأطرَافَهَـا تَتَـدَلَى عَلَى الأرض وَبَقِّي «طارق» حَزِينـاً مِـن أجلِهَـا, في اليَـوم التَـالِي التَقَى بِـ«ياسـمين» وَطَـال بَينَهُمَا الحَـدِيث عَـن الأفعَى المِسكِينَة وَتَبَـادَلا كَلِمَـات المُوَاسَـاة بِفَقدِهَا وَأخِيراً قَالَت «ياسمين»:

ـ لَقَـد أخبَرَتنِي أُمي إنْ لَـم تَـتِم خِطبَتِي مِنـك بِسُـرعَة سَتُضـطَّر لِرَغبَّة وَالِدِي بِزَوَاجِي مِن ابن عَمِي.

طَمأنَهَا «طارق» بِأنَّ كُل شَيءٍ سَيَكُون عَلَى مَا يُرَام وَفِعلاً في مَسَاء اليَـوم التَـالِي دَوَّت زَغَارِيـد النِسَـاء بِمُنَاسَـبَة خُطُوبَـة «طـارق» و«ياسـمين» وَانتَهَت حِكَايَة حُبَّهُمَا بِنِهَايَةٍ سَعِيدَة تَحمِل بَين طَيَاتِهَا أجمَّل الذِكرَيَات.

لَيْلَةٌ حَمْرَاءُ

لَفِظَتهُ الحَيَاة عَلَى رَصِيفِ العُزلَة الكَامِلَة دُون أهلٍ يَلجَأ إلَيهِم عَقِب فُقدَانَه زَوجَتُه كَمَا أنَّه لَيسَ لَدَيه أولاد. لَم يُرَحِّب بِه أَحَدٌ لِلعَمَل لِكِبَّر سِنِه فَلاقَى مَصَاعِب شَظَفِ العَيشِ وَضِيقِ الحَيَاة.

لأوَّل مَرَّة عُرِضَ عَلَيه العَمَل كَحَارِسٍ في مَخزَنٍ أهلِيٍّ بِرَاتِبٍ مَقبُول.

في نِهَايَة أوَّل شَهرٍ استَلَم رَاتِبَه فَكَان يَوماً مُمَيَزاً في حَيَاتِه، أحَسَّ بِشُعُورٍ غَرِيبٍ يَتَملَكَه وَهُو يُمسِك بِنُقُودٍ أعَاد عَدَّهَا وَحِسَابَهَا لِمَرَّاتٍ عَدِيدَة.

انزَلَقَت قَدَمَاه تَجُوبُ شَوَارِع المَدِينَة وَكَأنَّه يَمتَلِك الحَيَاة بَين قَبضَتِه، هَاهُو ذَا سَيُحَقِقُ كُلَّ مَا حَلُمَ بِه فَليَأكُل مَا لَذَّ وَطَابَّ.

رَغبَتُه الجَامِحَة بِأنْ يُطِلَّ عَلَى حَيَاةٍ جَمِيلَةٍ قَد حُرِمَ مِنهَا، سَيُمَزِّق خُيُوطاً كَانَت تُكَبِّل رَغبَاتَه السَجِينَة لِسَنَوَاتٍ طَوِيلَة يُغَالِب مِيُول نَفسَه مُضطَرَّاً فَغَدَت حَيَاتُه لَيَالٍ لَيلاءٍ طِوَالٍ.

جَعَلَته الأقدَارُ جَسَداً نَحِيلاً بِعُيُونٍ غَائِرَة خَلفَ نَظَارَاتٍ طِبِيَّة سَمِيكَّة مُكتَحِلَة بِأشبَاحِ الكَآبَة وَالشَقَاء، تَتَلَوَّى تَحتُه قَوَائِمٌ وَاهِنَةٌ تَتَهَاوَّى اضطِرَابَاً مِن حَملِه. قَرَرَ الانقِلابُ عَلَى وَاقِعِه المَرِيرِ وَليَخرُج مِن طَائِلَةِ شُقُوقِ الرُوتِين الضَيِّقَة وَيُطِلُّ عَلَى أعتَابِ حَيَاةٍ حَلُمَ بِهَا كَثِيراً بَعدَمَا أصبَح مِن أصحَابِ الدَخلِ الشَهرِي.

تَمَوَّجَت حَول مَسَامِعَه أصوَاتُ مُوسِيقَى تَنبَعِث مِن مَلهَى لَيلِي

فَلَم تُقَاوِم نَفسُه عُذُوبَة الألحَانِ فَتَسَابَقَت خُطُوَاتُه إلى أعمَاقِ المَلهَى أصبَح بَين الجُمُوع الفَرِحَة وَالأجسَادِ الطَرِيَّة اللَّدِنَّة التِي تَهتَزُّ مُتَنَاغِمَةً مُنسَجِمَةً مَع إيقَاعِ الطُبُول وَنَغَمَات المُوسِيقَى الصَاخِبَة، وَالنُفُوسُ اللاهِيَة مَشدُودَةٌ مَع أصَابِع الطَبَّالِين التِي تَتَرَاقَص عَلَى الدُفُوفِ وَالمَزَامِير.

جَلَسَ بِزَاوِيَةِ المَلهَى وَالأضوَاءُ الخَافِتَةُ تُخفِي عُيُوبَ الزَمَن المُلتَصِقَّة بِهَيئَتِهِ. يَدَاه المُقتَرِنَتَان تُصَفِّق إعجَابَاً لإلتِوَاءَاتِ أجسَادٍ رَشِيقَةٍ كَالأفَاعِي وَشَفَتَاه تُغَانِقَان بِمَوَدَّةٍ سِيجَارَةٍ رَخِيصَة قَد اعتَاد عَلَيهَا، تَنبَعِث مِنهُ سُحُبٌ خَانِقَةٌ يَرسِمُهَا حَلَقَاتٍ بِكَبِدِ القَاعَّة وَكَأنَّه يُحَمِّلُهَا هُمُومَ أحشَائِه المَوجُوعَة.

اقتَرَبَت مِنهُ إحدَى الرَاقِصَات فَغَمَزَتهُ بِطَرفِ عَينِهَا السَاحِرِ المَكحُولِ، وَكَلَّمَتهُ بِهَمَسَاتٍ شَيطَانِيَة أيقَظَت فِيهِ مَضَاجِعَاً مَيِّتَةً وَتَمَكَّنَت مِن أحَاسِيسِهِ كَلِمَاتٌ لَيسَت كَالكَلِمَاتِ التِي اعتَادَ عَلَى سِمَاعِهَا طِيلَة العُمر.

أمسَكَت بِأطرَافِ أصَابِعِه الغَلِيظَةِ الخَشِنَة بِتَوَدُّدٍ وَتَؤدَّة فَأحرَقَت بَدَنَه بِدِفءِ أصَابِعِهَا النَاعِمَةِ، فَازدَادَت ضَرَبَاتُ قَلبَه وَتَحَرَّكَت مَشَاعِرُهُ الجَائِعَة. يَستَمتِع بِأعذَبِ وَأرَقِّ الكَلِمَاتِ التِي تَنزَلِقُ مِن شَفَتَيهَا في غَنَجٍ، فَاستَنهَضَت فِيه رَغَبَاتٌ مَكبُوتَّة وَأُمنِيَاتٌ مُقَيَّدَة.

دَعَتهُ لِمُرَاقَصَتِهَا وَرَائِحَتُه النَتِّنَة تَنبَعِث مِن أسمَالِه البَالِيَةِ تُزكِمُ أُنُوفَ الحَاضِرِين حَتَى هَمَسَت بِأُذُنِه أنْ يُنَادِي لَهُم بِوَجبَةِ عَشَاءٍ فَاخِرَة مَع نَبِيذٍ غَير مَغشُوشٍ وَأكَدَّت عَلَى أنْ يَكُون غَير مَغشُوش. جَلَسَا يَستَمتِعَان بِالأكلِ حَتَى استَدرَجَتهُ لارتِشَافِ النَبِيذَ مَعَهَا

فَوَافَق وَالخَوفُ يَتَلاعَبُ بِأطرَافِ إرَادَتِه. أَخَذَت الخَمرَة مَآخِذَهَا بِلُبِّهِ كَذَلِك قَد مَكَّنَت بِسِحرِ نَشوَتِهَا مِن الجَسَدِ الذَابِل فَأَحَسَّ بِخَدَرٍ يَسرِي بِأطرَافِه، فَثَقُلَ لِسَانُهُ وَأصبَح يَلُوكُ الكَلامَ بِصُعُوبَةٍ بَالِغَة، وَبَدَأ يَهذِي بِكَلامٍ مُضطَرِب.

لَم يَترُك شَارِدَةً أو وَارِدَةً إلا وَتَطَرَّق لَهَا بِحَرَكَاتٍ بَهلَوَانِيَةٍ تُثِيرُ السُخرِيَة طَالَت كَلِمَاتُه السِيَاسَة وَالفَنَّ وَالحُبَّ وَحَيَاتَهُ الخَاصَّةِ ثُمَّ أَحَسَّ أنَّ الحُشُودَ أَصغَت لَهُ فَازدَادَّ تَبَاهِيَاً بِنَفسِهِ وَتَخَيَّل أنَّه خَطِيبٌ مُفَوَّه، أَخَذَ يُذَكِّرُهُم بِسَلبِيَاتِ المُجتَمَعِ وَيُشِير إلى جِرَاحٍ عَمِيقَةٍ وَخَفِيَّةٍ .يَخَافُ الآخَرُون مِن الإشَارَةِ إلَيهَا .بَينَمَا جَسَدُهُ يَرتَجِّفُ ضَعفَاً تَسنُدُهُ صَدِيقَتُهُ الرَاقِصَة.

أَحَسَّ أنَّ الأرضَ كَادَت أنْ تَمِيدَ بِه أو أنَّهَا تَمُوجُ تَحتَ قَدَمَيهِ وَأَصَابَه صُدَاعٌ حَادٌ فَلَم يَتَمَاسَك نَفسُه فَأَسنَدَتهُ عَلَى جَسَدِهَا فَتَقَيَّأ عَلَى مَلابِسِهَا وَأجزَاءِ جَسَدِهَا المَكشُوفَة فَامتَعَضَت مِنهُ وَوَبَّخَتهُ بِغَلِيظِ الكَلامِ مُشمَئِزَةً مِن تَصَرُفَاتَهُ.

تَرَكَتهُ بَعد أنْ حَقَّقَت مَا تُرِيد وَدَعَت النَادِل لِحَسمِ حِسَابِه فَأَخَذَ كُلَّ مَا مَعَهُ وَلَم يَترُك ذَلِكَ اللَئِيمُ لَهُ شَيئَاً. شَعرَهُ الأشعَث يُزِيدُ مِن مَنظَرِهِ بُؤسَاً وَعَينَيهِ الحَمرَاوَين كَعَينَي قِطٍ شَرِس يَبحَث بَين الوُجُوهِ الجَمِيلَة عَن فَرِيسَةٍ لإشبَاعِ غَرَائِزِه المَكبُوتَةِ حَيثُ يَتَفَحَّص الأجسَادَ اللامِعَةَ شِبه العَارِيَةِ تَحتَ الأضوَاءِ الخَافِتَةِ.

ازدَادَت آلامُ رَأسَهُ وَخَارَت قُوَاهُ ثُمَّ سَقَطَ عَلَى وَجهِهِ وَمَا هِي إلا لَحظَاتٍ حَتَى أُلقِيَ بِه إلى قَارِعَةِ الطَرِيقِ مَكبُوبَاً عَلَى طِوَارِ الرَصِيفِ فَوقَ بِركَةٍ مِن المَاءِ الآسِن. أَنِينُه يَستَصرِخُ الضَمَائِر وَيَستَعطِفُ القُلُوب.

مِسـكِينٌ أَرَادَ اللَعِـبَّ مَـع الأبَالِسَـةِ فَهَجَـعَ إلى مُسـتَنقَّعِ الضَـيَاعِ وَالنَـدَمِ. في اليَـومِ اللاحِـق جَلَـس قُـربَّ المَخـزَنِ الـذِي يَحرُسُـهُ مَلُومَـاً تُحرِقُـهُ آهَـاتُ النَـدَمِ عَلَى مَا أنفَقَـهُ في لَيلَـةٍ وَاحِـدَةٍ فَبَقَى يُعَـانِي مِن وَطأةِ الجُـوعِ وَالحَاجَـةِ طِيلَـةُ شَـهرٍ كَامِلٍ يَنتَظِر مُرَتَبَهُ القَـادِم، وَلَرُبَّمَا يَخُوضَ غِمَارِ مُغَامَرَةٍ أُخرَى.

obeikandl.com

حُبٌّ تَحْتَ خُطُوْطِ حَمْرَاءْ

حَفلَةُ زِفَافٌ رَائِعَة اجتَمَع فِيهَا أَهلُ الحَي، جُمُوعٌ غَفِيرَة يَجمَعُهَا الفَرَح وَالأُلفَّة, جَاء «ياسين» مُحتَفِلاً فَرِحَاً كَالآخَرِين, كَان مُتَحَدِثاً لَبِقَّاً مَع الكِبَارِ وَعَطُوفَاً مَع الصِغَارِ, عَرَضَ خِدمَاتَه لِلجَمِيعِ.

بَعدَ وَلِيمَةِ العَشَاءِ كَانَ مَع الذِين يَجمَعُونَ أَوَانِي الطَعَام الفَارِغَة وَإِعَادَتِهَا لِدَاخِل المَنزِل, جَلَس بَعدَ انتِهَاءِ أَشغَالَه لِيَتَنَاوَل العَشَاءَ مَع صَدِيقٍ لَهُ قُبَالَة غُرفَة العَرُوسَة حَيثُ كَان بَابُ غُرفَتِهَا مَفتُوحَاً لِكَثرَةِ النِسَاءِ اللَوَاتِي يَدخُلنَ لِتَقدِيمِ التَهَانِي.

تَسَلَلَتْ نَظرَاتُهُ إِلى دَاخِل الغُرفَةِ فَلاحَظ يَدَ العَرُوسَةِ تَمتَد لِرَفعِ خِمَارِهَا وَتَكشِفُ عَن أَجمَل وَجهٍ رَآهُ في حَيَاتِه، وَجهٌ كَالقَمَرِ مُبتَسِمَةٌ في وَجهِهِ ابتِسَامَةً أَذهَلَتهُ وَأربَكَتهُ, أَحسَّ«ياسين» بِالحَرَجِ يَتَمَلَكَهُ وَضَرَبَاتِ قَلبَهُ تَزَايَدَت بِشَكلٍ يُلفِتُ النَظَر إِلى حَيرَتِهِ، لا يَعلَمُ بِمَاذَا تَكُونُ رِدَّةُ فِعلَهُ وَلَكِنَهُ بَادَلَهَا ابتِسَامَةٌ بَرِيئَةً خَجُولَة لا يَعرِفُ عَوَاقِبُهَا, تَمَلَكَهُ حَيَاءٌ جَارِفٌ فَانسَحَبَ إِلى حَيثُ يَجلِسُ شَبَابُ الحَي.

بَقِيَ سَارِحُ البَالِ يُعِيدُ أَحدَاثَ مَا جَرَى بِكُلِّ دَقَائِقِهَا, تِلكَ الابتِسَامَةَ التِي أَدخَلَتهُ إِلى عَالَمٍ مِن الخَيَالِ كَان بِالأَمسِ يَجهَلُهُ تَمَامَاً مُتَسَائِلاً عَن مَغزَى تِلكَ الابتِسَامَةِ وَخُصُوصَاً لَم يَسبِقُ لَهُ أَنْ تَعَرَّفْ بِالعَرُوسَة, رُبَّمَا أَعجَبَتهَا وَسَامَتَهُ أو عِرفَانَاً بِالجَمِيلِ لِجُهُودِهِ أو كَانَت ابتِسَامَةً بَرِيئَةً عَابِرَة فَلِمَاذَا يُزِجُّ نَفسَهُ بِالتَسَاؤُلاتِ المُقلِقَة, لَو

كَانَت ابتِسَامَتُهَا مِن بَابِ الصُدفَةِ فَهِي أَجمَلُ صُدفَةٍ فِي حَيَاتِهِ المُهِمُ أَنَّهَا ابتَسَمَت وَحَسب عَن قَصدٍ أو دُونَ قَصدٍ وَلَكِن يَلزِمُهُ التَأَكُّدَ مِن ذَاكِرَتِهِ هَل هِي حَقِيقَةٌ أم وَهمٌ فِي عَقلِ مُرَاهِقٍ.

تَرَكَ أَحدَاثَ مَا جَرَى وَتَرَكَ قَلبَهُ يَعُومُ بِخَيَالٍ جَمِيلٍ رُغمَ تَحَفُّظِه الشَدِيدِ عَلَى الاندِفَاعِ بِدَهَالِيزِ نَوعٍ هَذِهِ العَلاقَةِ التِي لا يَرتَضِيهَا مَهمَا تَرَبَصَت بِه أو أَغرَتهُ وَلَكِن الذِي أَسعَدَهُ هُو إحسَاسُهُ الخَجُولِ بِأَنَّهُ أَصبَح مَرغُوباً بِه فِي حِسَابَاتِ الفَاتِنَاتِ وَلا يُهِمُهُ التَركِيزَ عَلَى نَوعِ هَذِه العَلاقَةِ التِي لازَالَت بِرَحِمِ الأَيَامِ وَلَم يَتَكَهَن بِمَا سَتَلِدهُ مِن مُفَاجَآتٍ مُستَقبَلاً.

بَعد مُرُورِ ثَلاثَة أَشهُرٍ لا يَزَال سِر هَذِه الابتِسَامَة يَغفُو بِذَاكِرَةِ «ياسين»، كَان يَومَاً مَع أَصدِقَاءٍ لَهُ بِالقُربِ مِن رَأسِ الشَارِعِ الذِي يَسكُنُ فِيهِ، وَإذَا بِهَا بِصُحبَةِ امرَأةٍ مِن ذَوِيهَا عَائِدَةً مِن السُوقِ، مَرَّت أَمَامَهُم وَعَينَيهَا العَسَلِيَتَين تَبحَثُ في الوُجُوهِ حَتَى التقت بِعَينَيهِ فَانهَارَت عَزَائِمَهُ وَسَالَت قَطَرَاتُ العَرَقِ عَلَى جَبِينِهِ مِنفَرِطِ حَيرَتِه, أَلقَت عَلَيهِمُ التَحِيَة وَذَهَبَت بِطَرِيقِهَا ثُم ابتَعَدَت خُطوَات وَبَعدَهَا التَفَتَت بِحُجَّةِ التَطَلُّع إلى مَا وَرَائِهَا حَتَى نَظَرَت في عَينَيهِ وَابتَسَمَت لَهُ ابتِسَامَةً سَاحِرَةً وَمَضَت بَعِيدَا.

بَقِيَ «ياسين» تَتَلاعَب بِهِ مَشَاعِرُ القَلَقِ مِن غَرَابَةِ هَذِهِ السّيّدَة المُتَزَوِجَة التِي تَمنَحُهُ جُرُعَاتٍ مُخَدِرَةٍ مِن السَعَادَةِ المَمزُوجَةِ بِالخَوفِ, ابتَسَمَت لَهُ دُونَ سِوَاهُ فَأَصبَحَت ابتِسَامَتَهَا حَقِيقَةً لا لَبسَ فِيهَا, هَل هُو إعجَابٌ وَلِيدُ اللَحظَةِ؟! أَم لَه بِدَايَاتٍ دُونَ عِلمِهِ؟! هَل يَرتَضِي بِعُرُوضٍ مُغرِيَةٍ مِن فَاتِنَةٍ لا تُعِيرُ لِلأَعرَافِ وَلِتَقَالِيدِ المُجتَمَع الأَخلاقِيَة؟ وَيَرفُضُ رَغبَةً طَالَمَا انتَظَرَهَا طَوِيلاً لِيَلتَقِي بِهَذَا

الجَمَالِ الصَارِخِ وَتَحقِيقِ مَآرِبٍ جَسَدِيَة دَنِيئَةٍ؟ أَحَسَّ بِدُنُوِّ حَسمِ مَوَاسِمِ خَيبَتِهِ التِي ابتَدَأَت بِصِرَاعٍ غَير مُنصِفٍ بَينَ قُدرَتِهِ عَلَى التَحَدِي وَالصُمُودِ بِوَجهِ الرَذِيلَةِ أو الذَوَبَانِ حَتَى مَنَابِتِ شَعرِهِ بِمَفَاتِنِ الخَطِيئَةِ وَالانجِرَافِ بِأَمواجِهَا, لا يَشُكُّ بِقُدرَتِهِ عَلَى فَكِّ طَلاسِمِ وَرُمُوزِ نَظَرَاتِ النِسَاءِ وَلَكِن فِرَاسَتِهِ المَزعُومَةِ قَد خَذَلَتهُ هَذِهِ المَرَّةِ فَمِن السَذَاجَةِ وَالغَبَاءِ أنْ تَتَعَارَض مَبَادِئَهُ المُلتَزِمَةِ مَع نَزَوَاتٍ رُبَّمَا يَنفَجِرُ بُركَانُهَا وَتَطغِي عَلَى قُدرَاتِهِ المَحدُودَةِ وَلَيسَ مِن المَعقُولِ أنْ يَتَمَادَى مُتَلَذِذاً بِشَهدِ أَحلامِهِ لِتَصِل إلى فِكرَةِ مُعَاشَرَةِ سَيِّدَةٍ مُتَزَوِجَةٍ مِن رَجُلٍ طَيِّبٍ.

لَم يَكُن مَهوُوساً بِمُمَارَسَةِ جُنُونِ مُيُولِهِ الجَسَدِيَة وَرَسمِ ذِكرَيَاتٍ مُؤلِمَةٍ تَبقَى شُرُوخُهَا مُؤذِيَةٌ لا تَمحُوهَا السُنُون، يُقلِقُهُ أنْ تُشِير أَصَابِعُ الاتِهَامِ إلى كَرَامَتِهِ التِي أُهرِقَت يَوماً بِاختِبَارٍ طَارِئٍ وَيَبقَى الإحسَاسُ المُقلِقُ بِالخِيَانَةِ يُطَارِدُ خُطوَاتَهُ رُغمَ أَنَّهُ لَم يَرتَكِبُهَا بَعد فَهُنَاك فِسحَةٌ مِن الأَمَلِ لِلهُرُوبِ مِن الدَعوَاتِ الخَرسَاءِ لِهَذِهِ السَيِّدَةِ الجَمِيلَة، يُعِيدُ حِسَابَات أَفكَارِهِ المُتَضَارِبَة فَهُو بِالكَادِ لَم يُصَدِّق بِوُجُودِ قَلبٍ يَنبِضُ مِن أَجلِهِ وَجَسَدٍ يَسمَعُ تَنَهُدَاتِهِ المَكبُوتَةِ وَغَلَيَانِ رَغَبَاتِهِ الجَيَاشَةِ فَكَيفَ السَبِيلِ لِمُجَارَاة هَذِهِ الفَاتِنَةِ وَهِي تَسحَبُهُ بِلُطفٍ إلى مَسَالِكِ الخِيَانَةِ.

رُغمَ كُلِّ هَمَسَاتِ الإغرَاءِ بَدَأ جِدِيَاً بِوَضعِ آلِيَةٍ لِلخُرُوجِ مِن مِحنَتِهِ, مَضَت الأَيَامُ وَأَفكَارُهُ تَنهَشُ رَأسَهُ بِأَلَمٍ لِكَونِهَا تَتَعَلَّق بِمَشَاعِرٍ مَعِيبَةٍ تَتَعَلَّق بِسَيِّدَةٍ مُتَزَوِجَةٍ, في عَصرِ أَحَد الأَيامِ كَان «ياسين» في نُزهَةٍ لِصَيدِ الطُيُورِ في آخِر الحَي عِند طَرِيقِ القِطَارِ الخَالِي بِعُمقِ مَسَالِكِ الأدغَالِ وَالحَشَائِش المُكتَظَّةِ هُنَاك رَأى مِن بُعدٍ امرَأتَان,

سَحَبَتهُ مُطَارَدَةُ طَيرٍ هَارِبٍ إلى القُربِ مِنهُمَا, كَانَت هِي مَع قَرِيبَتِهَا يَبدُو أَنَّهُمَا قَد قَدِمَا مِن السُوقِ الكَبِيرِ عَلَى بُعدِ مَرَاحِلٍ بِالمُوَاصَلاتِ العَامَة, أَلقَى التَحِيَة فَرَدَّت التَحِيَة وَمَلامِحُ السَعَادَةِ تَعتَرِيهَا بِعُنفٍ وَكَأَنَّهَا تَعرِفُهُ مُنذُ زَمَنٍ حَتَى دَعَتهُ لِلاقتِرَابِ أَكثَرِ.

سَأَلَتهُ عَن سَبَبِ مَجِيئِهِ فَأَخبَرَهَا بِهِوَايَتِهِ لِلمَجِئِ دَائِمَاً لِصَيدِ الطُيُورِ ثُم رَفَعَ بُندُقِيَتَهُ لِيُصَوِّبُ بِهَا نَحوَ كَبِدِ السَمَاءِ فَوَضَعَت أَصَابِعَهَا فِي آذَانِهَا خَوفَاً وَهِي تَلُوذُ بِجَنبِه مِمَّا أَثَارَ ضَحِكَاتِ الجَمِيع, دَعَتهُ لِلجُلُوسِ وَالاستِرَاحَةِ، وَبَعدِ ارتِشَافِ كُوبٍ مِن المَاءِ وَتَنَاوُل قَلِيلٍ مِن فَاكِهَةٍ كَانَت مَعَهَا وَنَظَرَاتِهِمَا مُتَعَلِّقَةٌ بِبَعضِهِمَا بِشَوقٍ, لَم يُصَدِّق أنَّ الصُدَف تَرمِي بِه إلى أَعمَاقِ الحَيرَةِ وَالعَذَابِ مِن أَمرٍ كَان يَعُدُّ العُدَّةَ لِلهَزِيمَةِ مِنهُ.

استَثمَرَت ذِهَابَ قَرِيبَتُهَا لِغَسلِ بَعضِ الفَوَاكِه مِمَّا كَانَت مَعَهُمَا مِن صُنبُورٍ غَيرِ قَرِيبٍ حَتَى ارتَمَت بِأَحضَانِهِ مُمسِكَةٌ بِيَدَيهِ قَائِلَةً: أَتَعرِّفُ اسمِي. قَال: نَعَم أَعرِّفُهُ جَيدَاً. فَابتَسَمَت لَهُ ابتِسَامَةِ رِضَا قَائِلَةً: أَنَا أَعرِّفُكَ مُنذُ زَمَنٍ عِندَمَا كُنتُ أَزُورُ أَقَارِبِي كُنتُ أَستَرِقُ النَظرَاتِ إلَيكَ وَأَنتَ لَم تُعِرنِي أي اهتِمَام، تَمَلَكَنِي إعجَابٌ كَبِيرٌ بِك وَبَقِيتُ أُتَابِعُ أَخبَارَك عَن كَثَب حَتَى وَجَدتُكَ أَمَامِي فِي لَيلَةِ الزَفَافِ فَطَارَ قَلبِي شَوقَاً إلَيكَ، الأَمرُ الذِي أَدهَشَكَ لِعَدَمِ مَعرِفَةِ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِي نَحوُكَ.

عَرَّفَ «ياسين» مُلابَسَاتِ الحِكَايَةِ, بَعد لَحظَاتِ صَمتٍ عَدَا لُغَةُ العُيُونِ التِي تَحَدَثَت بِالكَثِيرِ, قَال «ياسين»: اسمَعِي يَا سَيِّدَتِي أَنَا أَرجُو مُسَاعَدَتِك لِتَجَنُب الانغِمَاسِ أَكثَر بِمُنزَلَقَاتِ خَطِرَة وَنَحنُ نَرتَكِبُ خَطَأً أَثِيمَاً بِحَقِّ رَجُلٍ مِسكِين وَضَعَ اسمَهُ وَشَرَفَهُ بِرَقَبَتِكِ

قَبلَ أنْ تَتَجَاوَز عَلاقَتُنَا حَدَّاً لا يُمكِنُ السَيطَرَةِ عَلَيهِ, لَم تَجِد كَلِمَاتِهِ أَثَراً بِمَسَامِعِهَا المَسحُورَةِ بِنَغَمَاتِ صُوتِهِ وَدِفّء مُلامَسَتِهِ, قَالَت: يَهمُنِي رِضَاكَ حَبِيبِي، ثُم احتَوَتهُ بِأَحضَانِهَا وَأَغرَقَتهُ بِسَيلٍ جَارِفٍ مِن القُبَلِ السَاخِنَةِ التِي أَفقَدَتهُ تَوَازُنُهُ فَبَادَلَهَا قُبُلاتٍ مَحمُومَةٍ هِي الأُولَى في حَيَاتِهِ لِفَاتِنَةٍ رَقِيقَةٍ وَاجتَهَد بِمُجَارَاتِهَا كَمَا شَاهَد في الأَفلامِ الرُومَانسِيَةِ سَابِقَاً.

استَفَاقَ مِن غَيبُوبَةٍ قَد أَلَمَّت بِهِ وَكَأَنَّ عَقرَبٌ لَدَغَتهُ, استَوَى وَاقِفَاً تَتَمَلَكهُ قُشعَرِيرَةٌ مِن الخَوفِ وَالحَيرَةِ وَهِي جَالِسَةٌ مُمسِكَةٌ بِأَطرَافِ ثَوبِهِ وَاحمَرَت وَجنَتَاهَا فَرَحَاً وَلازَالَت تَدعُوهُ لِلجُلُوسِ وَلَكِنَهُ أَبَى ذَلِكَ تُحرِقُهُ ثَورَةُ النَدَمِ وَسِيَاطُ الضَمِيرِ تَلسَعُهُ بِاحتِقَار, قَالَت: تَعَالَ يَا حَبِيبِي نَستَمِعُ إلى صَرخَاتِ أَروَاحِنَا تَعَالَ نَرتَشِفُ ثُمَالَةَ كَأسِ العِشقِ الجَمِيلِ وَدَعنِي أَذُوبُ فَيُبحِرُ حَنَانُكَ الجَمِيلِ وَأَرتَوِي مِن مِيَاهِ أَمواجِكَ العَذبَةِ.

اجلِس دَعنَا نُغَنِي لأفرَاحِنَا وَلِلطُيُورِ وَالأشجَارِ وَنَستَمِعُ إلى نِدَاءِ رَغبَاتِنَا وَدَعنَا نَرقُصُ بَينَ الحَشَائِشِ رَقصَاتُ اللِقَاءِ الأوَلِ, تَعَالَ نَلعَبُ كَالأطفَالِ, نَتَنَاسَى نُظُمَ الحَيَاةِ البَالِيَةِ وَتَقَالِيدُهَا المُتَهَرِئَةِ فَسُحقَاً لِنَوَامِيسٍ مَزعُومَةٍ تَلغِي أَفرَاحَنَا وَتَسحَقُ رَغبَاتَنَا تَعَالَ نَعِيشُ لِلَحظَاتِنَا التِي لا تَعُود, اكتَفَى «ياسين» بِالنَظَرِ في عَينَيهَا الآثِمَةِ وَهُوَ يُدَارِي ثَورَةَ حَيرَتِه بَينَ القَبُولِ بِكَلِمَاتِهَا وَبَينَ الصَوَابِ الذِي يَدعُوهُ إلى مَسَالِكِ الفَضِيلَةِ، رَأَى في عَينَيهَا تَأَجُجَ مَشَاعِرِ الرَغبَةِ وَدَعوَاتُهَا تَستَبِيحُ بَرَاءَتهُ بِدُونِ تَرَدُدٍ وَاستِدرَاجِهِ إلى المَتَاهَةِ, أَحَسَّ أَنَّ شَهِيَتَهُ لِرَغبَةِ مُجَارَاتِهَا قَد مَاتَت تَمَامَاً لِسَيلِ أَفكَارِهَا المُضَلِلَةِ التِي تَلَتهَا بِمَسَامِعِهِ, اندَثَرَت تِلكَ الأُمنِيَاتُ التِي عَذَّبَتهُ كَثِيرَاً،

تَنتَابُـهُ نَشـوَةُ الافتِخَـارِ بِنَفسِـهِ وَمَقدِرَتِـهِ عَلَى تَخطِي المُسـتَحِيلَ وَتَحطِيمُ قُيُودَ ضَعفِهِ وَسَحقِ رَغبَاتَهُ المَكبُوتَةِ.

سَحَبَ يَدَهَا لِيُوقِفُهَا قَائِلاً: انهَضِي أَيَّتُهَا الجَمِيلَة التِي غَنَت لَهَا مَشَاعِرِي وَنَبَضَ لَهَا قَلبِي أَيَّتُهَا الرَيحَانَةُ الرَقِيقَة أَخشَى عَلَيكِ يَومَاً أَنْ تَلوِي عُنُقَكِ العَوَاصِفُ فَكَفَاكِ وَهمَاً فَلا تَترُكِي مَصِيرَكِ تَتَلاعَبُ بِهِ نَزوَاتٌ مُشِينَةٌ عَابِرَة وَأَنْتِ امرَأَةٌ مُتَزَوِجَةٌ فِي عَائِلَةٍ مُحَافِظَةٍ وَزَوجٍ شَهمٍ وَغَيُورٍ وَطَيِّبِ القَلبِ فَمِن السَذَاجَةِ وَالغَبَاءِ أَنْ تُضَحِي بِحُبِّهِ لَكِ.

أَدعُـوكِ أَنْ تَنهَضِـي مِـن سِحرِ الخَيَـالِ الـذِي يُغرِقُـكِ وَيَعبَـث بِمَفَاصِل حَيَاتِـكِ، أَنْـتِ زَهـرَةٌ زَاهِيَـةٌ فَمِـن غَيرِ المُنصِـفِ أَنْ تَرتَـوِي بِمِيَـاهٍ آسِـنَةٍ فَتَجَلَـدِي وَأَوقِفِي انحِـدَارِ مُيُولَـكِ الجَسَـدِيةِ بِكَثِيرٍ مِن الإيمَـانِ بِـالله وَالتَقَـرُبِ لِمَنطِقِ الحِكمَـةِ, اكتَشِـفِي مَسَـالِكَ الصَـوَابِ وَمَكَـامِنِ الضَـعفِ، أَرجُـو أَنْ تَنسِـينِي إلى الأَبَـدِ رَأفَـةً بِـي وَبِـك وَلا تَتَوَهَمِي أَنَّنِي أَعُودُ يَومَاً إلَيكِ بِهَذَا الطَرِيقِ المُمتَلِئ بِالأَشوَاك.

لا أُخفِيكِ أَنَّنِي كَبَاقِي خَلقِ الله لِي مُيُـولِي وَنَزوَاتِي وَلَكِن بِحُـدُودِ عَقِيـدَتِي، بَعـد لَحظَـاتٍ أَصِـلُ إلى مَنزِلِي مُتَنَاسِـيَاً لَحظَـاتِ حُـبٍّ مَسرُوقَةٍ وَسَأَنسَى تِلكَ اللَحظَاتِ المُلتَهِبَةِ قُربَانَاً لِنِدَاءِ الحَقِّ وَالمَنطِقِ السَـلِيمِ, وَسَـأَقُولُ لأحلامِـي وَدَاعَـاً لِقِصَـةٍ مَاتَـت قَبـل أَنْ تَكتَمِـل فُصُـولُهَا وَبَـدرَاً لَـم يَكتَمِـل مَـع شَـدوِ تَرَانِيمِي وَطُقُـوس أَشـوَاقِي الضَـائِعَة, وَدَاعَـاً لِفَرَاشَـةٍ تَـرُومُ مُغَـازَلَتِي فَأَحرَقَهَـا لَهِيـبُ مِصبَاحِي, وَدَاعَـاً لِقَلبِي الـذِي تَركتُـهُ يُرَفـرِفُ بِسَـمَاءٍ غَرِيبَـةٍ, وَدَاعَـاً أَيَّتُهَـا الـنَغَمُ الجَمِيلُ فَهَـذَا مُفتَرَقُ طُرُقَاتِنَـا الـذِي يُوصِلُكِ لِزَوجُـكِ وَيُوصِلُنِي إلى وِحدَتِي.

ابتَعَدَ عَنهَا شَيئاً فَشَيئاً بَينَ تِلكَ الأَحرَاشِ وَبُندُقِيَتُهُ تَبحَثُ بِالسَمَاءِ عَن هَدَفٍ بَينَ تِلكَ الطُيُورِ المَذعُورَةِ مِنهُ، أَفكَارُهُ مُشَتَتَةٌ مُفتَخِراً بِإنجَازٍ قَد تَوَصَلَ إلَيهِ هُوَ مُحَارَبَةُ ذَلِكَ المَارِدَ القَابِعِ بِجَسَدِ كُلِّ إنسَان, انتَصَرَ بِإرَادَتِهِ سَاحِقاً عَوَاطَفَهُ وَرَغَبَاتَهُ لِكَونِهَا تَتَعَارَض مَع سَعَادَةِ وَحَيَاةِ إنسَانٍ آخَر, ابتَعَدَ عَنهَا وَهِي مُنهَارَةٌ مُشَتَتَةٌ وَفي عَينَيهَا يَجُولُ الدَمعُ مِدرَاراً وَنَظرَاتُهَا مُتَحَجِرَةً بِاتِجَاهِ خُطوَاتِهِ مَذهُولَةٌ لِمَا سَمِعَت لَم تُصَدِق مَا جَرَى مِن نِهَايَةٍ بَائِسَةٍ لِحُلمِهَا القَدِيمِ.

مَا أَغرَبُ الحَيَاةِ فَكَم هِي سَرِيعَةٌ بِلِقَاءٍ خَاطِفٍ وَفِرَاقٍ أَسرَع, وَقَفَت خَلفَهُ تُوَدِعهُ قَائِلَةً: الوَدَاع يَا «ياسين» وَدَاعاً أَيُّهَا الحُلمُ الذِي لا يَعُود، نَادَت عَلَى قَرِيبَتِهَا وَدَعَتهَا لِلعَودَة إلى المَنزِل, بَعد خَمسَةٍ وَثَلاثِينَ عَامَاً عَادَ «ياسين» مِن غُربَةٍ طَوِيلَةٍ إلى الحَي يَستَطلِعُ مَوَاطِئَ ذِكرَاهُ طُفُولَتَهُ وَشَبِيبَتَهُ الجَمِيلَة مُتَسَائِلاً عَن كُلِّ الأَحِبَّةِ بِمَا فِيهِم صَاحِبَةُ القِصَةِ فَأَخبَرُوهُ أَنَّهَا أُمٌ لِمَجمُوعَةِ أَولادٍ وَبَنَات وَجَدَةٌ لِثَلاثِ صِغَار، أَنسَتهَا الحَيَاةُ أَفكَارَ شَبِيبَتِهَا الثَائِرَة.

هِي الآن أُمٌ فَاضِلَة تَرَبَّى عَلَى يَدَيهَا جِيلاً طَيِّباً بِشَهَادَةِ الجَمِيع وَهِي تَحمِلُ الكَثِيرَ مِن العِرفَانِ وَالجَمِيلِ لِـ«ياسين» الذِي انتَشَلَهَا مِن ضَيَاعٍ مَحتُوم، وَتُكِنُ مَزِيداً مِن الحُبِّ وَالاحتِرَامِ لِذَلِكَ الشَابَ الذِي أَنَارَ طُرُقَاتِهَا بِشُعلَةِ الفَضِيلَةِ, بَقِيَ فِي ذَاكِرَتِهَا طَيفَاً عَزِيزَاً لَم يُغَادِرهَا إلى الأَبَد, التَقِيَا لأَكثَرِ مِن ثَلاثِ مَرَّاتٍ بِلِقَاءٍ بَرِيءٍ وَحَمِيمٍ بِمَوَدَةٍ رَقِيقَةٍ وَذِكرَيَاتٍ دَفِينَة لا يَعرِفُهَا سِوَاهُمَا, صُورَةً جَمِيلَة قَد رُسِمَت بِمِدَادِ الطُهرِ وَالمَحَبَّةِ البَرِيئَة.

في اليَومِ التَالِي ذَهَب «ياسين» إلى ذَلِكَ المَكَان لِمُزَاوَلَة هِوَايَتِهِ

القَدِيمَـة بِصَـيدِ الطُّيُـورِ وَطَلَبَـاً لِلوِحـدَةِ مِـن هُمُـومِ الـزَمَنِ القَاسِـي لِيَستَمتِع مَع ذِكرَيَاتٍ لا تَمحُوهَا الأَيَام. وَقَـفَ هُنَاك حَيثُ التَقِيَا أَوَلَ مَـرَّة وَهُـوَ يَبتَسِـم إِلَيهَـا وَعَينَـاهُ تَجُـولُ في الأُفُـقِ بَحثَـاً عَـن طَـائِرٍ لِيَصطَادَه، قَائِلاً: أَمَازِلتِ تَخَافِين مِن صَوتِ البُندُقِيَة؟

obeikandl.com

زُهُوْرٌ وَأَشْوَاكٌ

في مَنزِلٍ بِأَطرَافِ المَدِينَةِ يَعِجُّ بِالبَغَايَا وَتَفُوحُ مِنهُ رَائِحَةُ تَفَسُّخِ الأَخلاقِ وَانحِطَاطُهَا وَمَعرِضٌ رَائِجٌ لِلأَجسَادِ بِرَبِيعِ العُمُرِ تُبَاعُ لِعَجَائِزٍ مَهوُوسِين وَشَبَابٍ لَيسَ لَدَيهِم مَا يَنشَغِلُون بِه مِن عَمَلٍ جَاءُوا جَمِيعَاً لإشبَاعِ رَغَبَاتٍ مَكبُوتَةٍ, فَاتِنَاتٍ حَسنَاوَات بِأَجسَادٍ شِبه عَارِيَة يَحتَرِفنَ الدَعَارَة، يَمتَلِكنَ طُرُق شَيطَانِيَة لاستِدرَاجِ الرِجَالِ إلى مَصيَدَةِ اللَّذَاتِ دُونَ خَوفٍ أو رَادِعٍ لِضَمِير.

تَغمِزُ إحدَاهُن كَهلاً يَتَمَايَل طَرَبَاً أَمَام إحدِاهِن وَهِي تَتَلَوَّى عَلَى أَنغَامِ أَلحَانِ رَجُلٍ مَخبُولٍ يَعزِفُ لَهُم عَلَى قَانُونٍ عَتِيق وَأَلحَانُهُ مَهزَلَةٌ لا تُطَاق وَآخَرُ يَضرِبُ عَلَى الدُّفِّ وَعَينَاهُ تُرَاقِبُ جَسَدَ إحدَاهِنَ المُكتَنِز وَهِي تَنفُثُ بِدُخَانِ سِيجَارَتِهَا بِطَرِيقَةٍ مُغرِيَة, وَتَبتَسِمُ الأُخرَى لِفَتَىً بِرَبِيعِ العُمرِ لإغوَائِهِ, الكُلُّ يَفتَعِلُون الضَحِك غَيرَ البَرِئ وَيَكذِبُونَ عَلَى بَعضِهِم البَعض.

نَظرَةً شَامِلَةً بِوُجُوهِ القَومِ سَتَجِد العُيُونَ الجَاحِظَةَ وَالوُجُوهَ المُتَجَعِدَةَ وَصِغَاراً رُبَّمَا سَرَقُوا مَا أَتُوا بِه مِن مَالٍ أو احتَالُوا عَلَى ذَوِيهِم وَمَنْ لَفِظَتهُم الحَيَاةُ وَنَبَذَتهُم الأَقدَارُ عَلَى شَوَاطِئ الحِرمَانِ وَالكُلُّ يَرُومُ لَحظَاتِ مَرَحٍ أو مُتعَة وَإشبَاع نَزَوَات.

جَاء «مصطفى» بِرِفقَةِ صَدِيق بَعد أَنْ تَوَسَلَ ذَلِكَ الصَدِيقُ لِـ«مصطفى» لِصُحبَتِهِ وَأَلَّحَّ عَلَيهِ إلى أَنْ أَقنَعَهُ بِمُرَافَقَتِهِ, لأوَلِ مَرَّةٍ يَزُورُ «مصطفى» هَذِهِ الأَمَاكِن المَوبُؤَة بِمَفَاسِدِ الأَخلاقِ, كَان خَجُول تَتَمَلَّكُهُ الحَيرَةُ بِارتِيَادِ هَذَا المَنزِلَ العَقِيم لَقَد ذُهِلَ لِمَشَاهِدٍ لَم يَألَفهَا

سَابِقاً فَجلَسَ بِرُكنٍ مِن صَالَةِ الانتِظَارِ يَرمِقُ الجَمِيعَ نَادِمَاً عَلَى مَا أَقدَمَ عَلَيهِ، وَبَينَمَا هُو يُهِمُّ بِالخُرُوجِ مِن المَنزِلِ اعتَرَضَتهُ فَتَاةٌ جَمِيلَة وَأَلقَت عَلَيهِ التَحِيَة بِمَوَدَةٍ قَائِلَةً لَهُ:

.أُرِيدُ أَنْ أُحَدِثُكَ عَلَى إنفِرَاد.

فَظَنَّ «مصطفى» أَنَّ مَا تَفعَلهُ هَذِه الفَتَاة رُبَّمَا مِن أُصُولِ اللُعبَةِ وَهُو يَجهَلُ مَا يَنبَغِي عَلَيه أَنْ يَفعَلهُ, صَمَتَ أَمَامَهَا وَلَم يَجِد مَا يُقَال حَتَى تَوَسَلَت إلَيهِ بِصُحبَتِهَا حَتَى أدخَلَتهُ إلى إحدَى الغُرَفِ دُون أَنْ يُثِير هَذَا الوَضعَ فُضُولُ الآخَرِين، اختَلَى «مصطفى» بِتِلكَ الفَاتِنَةِ قَائِلاً:

.مَاذَا تُرِيدِين؟!

ـ أَنَا رَأَيتُ فِيكَ مَا لَم يَرَاهُ الآخَرِين فَأَنْتَّ إنسَانٌ جِئتَ خَطَأً في المَكَانِ الخَطَأ وَتَوَسَمتُ فِيكَ الخَيرِ فَأَنَا أَبحَثُ عَن إنسَانٍ شَرِيفٍ يُنقِذُنِي مِن هَذَا الجَحِيم وَيَنتَشِلُنِي مِن هَذَا الضَيَاع.

تَمَلَّكَهُ الذُهُول أَمَام هَذِه الجَمِيلَة المُلغِزَة وَدُمُوعَهَا استَثَارَت عَوَاطِفُهُ فَهَدَّأ مِن حَالَتِهَا قَائِلاً:

.وَلِمَاذَا أَنْتِّ هُنَا؟!

ـ أَنَا حُشِرتُ هُنَا مُرغَمَة بَعد أَنْ فَقَدتُ أبي وَأُمي، وَلَم يَكُن لِي أَحَدٌ سِوَى خَالَتِي التِي زَجَّت بِي إلى هَذَا المُنعَطَفِ الخَطِير رَغم إرَادَتِي مُنذُ شَهر، وَإيمَانَاً مِنّي لِلمُحَافَظَةِ عَلَى طُهرِ جَسَدِي الذِي صَارَعتُ بِشَرَاسَةٍ لِلمُحَافَظَةٍ عَلَيهِ مِمَّا جَعَلَنِي أُوَاجِهُ يَومِيَاً أَشَدَّ العُقُوبَاتِ مِن خَالَتِي وَأَحيَانَاً الضَربَ مِن بَعضِ الزَبَائِن الذِينَ مَاتَت ضَمَائِرُهُم وَلَم يُصَدِقُوا حِكَايَتِي وَهُنَاك مَنْ يَترُكَنِي لِدُمُوعِي وَيَرحُم بَرَاءَتِي وَأَنَا أَخشَى أَنْ تَخذِلُنِي الأَيَام حِينَهَا سَتَكُون جُثَتِي أَمَام هَذَا المَنزِل

الذَميم.

نَظَر «مصطفى» بِعُمقٍ في عَينَيهَا فَوَجَدَ في بَرِيقَهِمَا كُلَّ الصِدقِ وَكَانَت قَطَرَاتُ الدَمعِ تُزِيدَهَا جَاذِبِيَة وَفِتنَة وَلِجَمَالِهَا هَيبَةٌ وَشُمُوخ.

حَـزَن «مصـطفى» جِـدَاً لِسَـمَاعِ حَـدِيثِهَا وَحُجَجُهَـا بِالصُـمُودِ وَمُعَاكَسَـةُ تَيَـارَاتٍ تَجـرِفُ الجَمِيـع بِـإغرَاءَاتِ تِلـكَ اللَيَـالِي الحَمـرَاء، أَفكَارُهُ مُنشَغِلَة بَين تَصدِيقِهَا أو الصُدُود عَنهَا وَعَدَم الوُثُوقِ بِكَلِمَاتِهَا البَاكِيَـة المُسـتَعطِفَة حَيـث يَبـدُو لَـيس مُتَسَـعٌ لِلكَـذِبِ وَسَـطِ تِلـكَ الآهَاتِ وَالدُمُوع.

أَخبَرَهَـا أَنْ تُرشِـد خُطوَاتَـهُ إلى مُنعَطَـفٍ جَيِّـد لِحِكَايَتِهَـا بِقَـرَارٍ حَاسِـمٍ وَشُـجَاع لِيُؤَهِلُـهُ أَنْ يَكُـون عَونَـاً وَسَـنَدَاً لَهَـا, لا يُنكِـرُ المُتَنَاقِضَـات التِي تَجُـولُ بِأَفكَارِهِ أَمِـنَ المَنطِقِ وَالمَعقُـول أَنْ يُصِيبُهُ الجُنُونُ بِحُبِّ فَتَاةٍ .مُومِس .وَبَائِعَةِ هَوَى لِجَمَالِهَا أو رَأفَةٍ بِحَالِهَا طَالَمَا أَمتَعَت أَجلافَ القَومِ قَبلَهُ أم يَعشَق إنسَانَةً طَاهِرَةً أَلقَت بِهَا الأَقـدَارُ ظُلمَاً بَين مَخَالِبٍ مُتَوَحِشَـةٍ لا تَرحَم, مَرَّت لَحظَاتُ صَمتٍ وَبَعدَهَا قَال لَهَا:

ـ اسـمَعِي سَـأُغَادِرُ الآن وَسَـأَجتَهِدُ لإنقَـاذِكِ بِطَرِيقَـةٍ لا تُعَرِضُـكِ لِلأَذَى وَلا تُلقِي بِي في مَشَاكِلٍ أنَا في غِنَىً عَنهَا.

قَبَّلَـت يَدَيـهِ وَانحَنَـت لِتُقَبِّـلُ قَدَمَيـهِ فَمَنَعَهَـا مِـن ذَلِـك. وغَـادَر «مصـطفى» المَنزِلَ وَمَشَـاعِرُ الخَجَلِ تُلاحِقُهُ مِن زِيَارَتِهِ لِهَذِهِ المَجزَرَةِ الفَاسِدَة لِلأَجسَادِ الرَخِيصَة, كَان قَلبُهُ مُنشَغِلاً بِجَمَالِ هَذِهِ الفَتَاةِ مُتَمَنِيَاً لَـو التَقَاهَا بِمَكَانٍ غَيرِ هَذَا وَلَكِن هَذَا لَم يَمنَعُهُ مِن اتِخَاذِ قَرَارٍ حَاسِمٍ لإنقَاذِهَا.

وَفِعلاً بَعد سَبعَةِ أَيَامٍ جَاء لاصطِحَابِهَا إلى أي مَكَان، طَرَق البَاب

فَخَرَجَت إلَيهِ إحدَى النِسَاء هُنَاك فَسَأَل عَن صَاحِبَتِهِ فَأَخبَرَتهُ المَرأَة أَنَّهَا تَرقُدُ في المُستَشفَى إثرَ شِجَارٍ مَع أَحَدِ الزَبَائِن لِرَفضِهَا مُعَاشَرَتِهِ حَتَى جُنَّ جُنُونُهُ وَانهَالَ عَلَيهَا ضَرباً وَسَبّاً إلى أَنْ فَقَدَت وَعيَهَا وَسَطِ دِمَائِهَا النَازِفَةِ وَجُرُوحِهَا البَلِيغَة.

غَادَر «مصطفى» مَع صَدِيقٍ لَهُ إلى المُستَشفَى وَبَعد جُهدٍ جَهِيد تَمَكَّن مِن العُثُورِ عَلَيهَا فَكَانَت رُغم جِرَاحِهَا وَآلامِهَا مُشرِقَةٌ كَالقَمَر فَلَمَّا رَأَت «مصطفى» استَبشَرَت وَابتَسَمَت لَهُ ابتِسَامَةِ رِضَا وَفَرَح وَعِرفَانٍ بِالجَمِيل لِذَلِكَ الشَابِ الغَيُور الذِي تَعَاطَف مَع مِحنَتِهَا.

اطمَئَن عَلَى حَالَتِهَا وَبَعد وَقتٍ جَمِيلٍ مِن الحَدِيث أَخبَرَهَا أَنَّهُ جَاء لِصُحبَتِهَا, طَار قَلبُهَا فَرَحاً لِسَمَاعِ هَذِهِ الأَنبَاءِ المُفرِحَة وَالبُشرَى التِي انتَظَرَتهَا كَثِيراً, خَرَج الثَلاثَةُ مِن المُستَشفَى دُونَ طَلَبِ إذنٍ لِخُرُوجِهَا.

اصطَحَبَهَا «مصطفى» إلى بَيتِهِ وَهُنَاك حَدَثَ مَا لَم يَكُن بِالحُسبَان أَمَام ثَورَةِ الغَضَبِ لِوَالِدَيهِ وَاعتِرَاضِهِم لِمَا يَقُوم بِه ابنَهُمَا وَانهَالَت بِمَسَامِعِهِم سَيلُ كَلِمَاتِ التَأنِيبِ وَالإذلالِ وَوَصَفُوا صَدِيقَتَهُ بِأَبشَعِ الكَلِمَاتِ وَالوَصفِ أَجبَرَتهُ عَلَى مُغَادَرَةِ البَيتِ مَعهَا إلى مَنزِلِ أَحَدِ أَصدِقَائِهِ الذِي أَرشَدَهُ بِدَورِهِ إلى مَنزِلِ أَحَدِ أَقَارِبِهِ خَارِجَ المَدِينَةِ لِيَأمَن المُطَارَدَةَ وَالطَلَب.

ظُرُوفُ «مصطفى» ازدَادَت تَعقِيداً وَخُصُوصاً لَيسَ لَدَيهِ عَمَل رُغم حِيَازَتهُ شَهَادَةً جَامِعِيَة, مَارَس هُنَاك كَثِيراً مِن الأَعمَال التِي مَكَّنَتهُ مِن أَنْ يُقَاوِم مَصَاعِبَ الحَيَاة وَتَزَوَجهَا بِمَا يُرضِي الله.

مَرَّت بِهِم أَيَامٌ أَسعَدُ مَا يَكُون وَعَاشَا عَاشِقَين حَبِيبَين وَأَنجَبَت لَهُ وَلَداً وَسِيمَاً وَبِنتاً جَمِيلَة كَثِيرَةِ الشَبَهِ بِأُمِهَا، عَادَت أَوَاصِر التَوَاصِلِ مَع أَهلِهِ مِمَّا سَهَل عَلَيهِ مُوَاجَهَةَ الحَيَاة وَبَعدَهَا حَصَلَ

عَلَى وَظِيفَةٍ مَرمُوقَةٍ وَهَكَذَا فَتَحَت لَهُم السَمَاءُ السَعَادَةَ مِن أَوسَعِ أَبوَابِهَا.

مَرَّت ثَلاثُ سَنَوَاتٍ وَفي أَحَدِ الأَيَامِ كَان «مصطفى» يَصطَحِب أَفرَادَ العَائِلَةِ الصَغِيرَةِ السَعِيدَةِ لِشِرَاءِ كُسوَةَ العِيد إذ تَوَقَفَت أَمَامَهُم دَرَاجَةٌ بُخَارِيَة تُقِلُّ مُلَثَمَين وَرَشَقُوهُمَا بِوَابِلٍ مِن الرَصَاص حَتَى وَقَع الجَمِيعُ مُضرَجِين بِدِمَائِهِم وَوَلَى المُجرِمَين هَارِبَين تَارِكِين أَجسَاداً تَسبَحُ بِدِمَائِهَا وَسَطِ ذُهُولِ حُشُودٍ غَفِيرَةٍ مِن النَاس. أَرَادَ النَاسُ المَذهُولُونَ أَنْ يَنقِلُوهُم إلى المُستَشفَى فَطَلَبَ أَحَدُهُم الإسعَاف.

وَفي سَيَارَةِ الإسعَافِ طَلَبَت مِن المُسعِفِين أَنْ تَرَى «مصطفى», اقتَرَب إلَيهَا بِصُعُوبَةٍ بَالِغَة لإصَابَتِهِ بِطَلَقٍ نَارِي بِسَاقِهِ وَآخَرٍ بِذِرَاعِهِ وَكَانَت كَلِمَاتُهَا مُتَبَاطِئَةً خَافِتَة، ثُم أَمسَكَتهُ بِيَدٍ مُرتَعِشَة بَاكِيَةَ العَينَين وَمُتَوَسِلَةً لَهُ أَنْ يَرفِق بِأَطفَالِهَا وَيَعتَنِي بِهِم لأَنَّهَا رَاحِلَة لا مَحَالَة لإصَابَتِهَا بِجُرُوحٍ بَلِيغَة وَفِعلاً وَهُو يَنظُرُ في عَينَيهَا تَوَقَفَت نَبَضَاتُهَا وَخَفِتَ بَرِيقُ عَينَيهَا وَبَرَدَت أَطرَافُهَا.

بَكَاهَا «مصطفى» بُكَاءاً مُرَّاً وَهُو يَحتَضِن أَطفَالَهُ مِنهَا وَهَكَذَا حَرَمَتهُ الحَيَاةُ مِن فَرحَةٍ لَم تَكتَمِل مَع إنسَانَةٍ مُشكِلَتُهَا أَنَّهَا رَفَضَت الرَذِيلَة فَصَرَعَتهَا الأَقدَار ثُم تَخَطَّفَتهَا يَدُّ الرَدَى.

لا تُفَارِقُهُ ذِكرَاهَا وَتُعَذِّبُهُ رُؤيَةَ أَطفَالِهَا وَهُم يَسأَلُونَهُ عَنهَا وَكَان كُلَّمَا يَشتَاق لِرُؤيَاهَا يَنظُرُ بِعَينَي ابنَتِهِ لأَنَّهَا كَثِيرَةُ الشَبَهِ بِأُمِهَا الرَاحِلَةِ المِسكِينَة.

لَحْظَةُ غَضَبْ

مَارِسْ 1970 م..

لَم يَنجَرِف «عصام» لإلحَاح وَإغرَاءَات أصدِقَائِهِ بِمُرَافَقَتِهِم إلى «مَحَطَة الرَمل» وَهِي سُوقٌ يَرتَادُه طَالِبُو اللَّذَّةَ وَالمُتعَة مِن كُلّ صَنف حَيثُ تَتَوَفَر فِيهَا كُلّ وَسَائِل اللَهوِ مِن سِينِمَاتٍ وَمَطَاعِم وَمَلاهِي وَأَيضَاً سُوق رَائِج لِلأجسَاد.

كَان «عِصام» فَتَى طَمُوح وَحَرِيص عَلَى التِزَامِهِ الأَخلاقِي وَيَنصَبُّ كُلُّ اهتِمَامِهِ عَلَى دِرَاسَتِهِ وَتَحقِيقِ حُلمَاً يَجُولَ بِأَفكَارِهِ.

في أَحَدِ الأَيَام استَأذَنَهُ أَحَدُ أَصدِقَائِهِ لِيُخبِرَهُ بِأَمرٍ غَايَةٍ في الأَهَمِيَة وَبَعد أَنْ جَلَسَا بِمَكَانٍ مُنفَرِدَين، قَال «عصام»: هَات مَا عِندِك مِن أَخبَارٍ يَا صَدِيقِي.

فَأَجَابَهُ صَدِيقُهُ قَائِلاً:

ـ اسمَع يَا صَدِيقِي العَزِيز لَو لَم تَكُن صَدِيقٌ عَزِيزٌ عَلَى قَلبِي لَمَا أَرَدتُ أَنْ أُخبِرَك بِهَذَا المَوضُوعِ الشَائِك وَأَتَمَنَى أَنْ تَتَحَلَى بِالصَبرِ الشَجَاعَةِ وَالحِكمَة عَلَى التَصَرُّفِ لِكَونِهِ بِغَايَةِ الحَسَاسِيَة, يُؤسِفُنِي يَا «عصام» أَنْ أَقُول لَك أَنَّنِي في مَسَاءِ الأَمسِ ذَهَبتُ مَع أَحَدِ أَصدِقَائِي إلى «مَحَطَة الرَمل» وَبَعد أَنْ استِمتَعنَا وَتَجَوَلنَا كَثِيراً هُنَاك ذَهَبتُ مَعَهُ إلى شَقَةٍ مِن الشُقَقِ السِرِيَة، وَأَنْتَ تَعلَم مَا هُنَاك وَلَكِنَنِي تَفَاجَأتُ بِرُؤيَةِ زَوجَةِ عَمِك في تِلكَ الشَقَة تُمَارِسُ البَغَاء تَحتِ إشرَافِ عَجُوزٍ مُومِس شَرِسَة مَلعُونَة وَعِندَمَا رَأَيتُهَا رَاوَدَنِي

الشَكُّ أَوَلاً فَأَحبَبتُ أَنْ أَقِف عَلَى حَقِيقَةِ الأَمرِ فَاقتَرَبتُ مِن ذَلِك المَنزِل حَتَى اعتَرَضَتنِي تِلكَ العَجُوزُ فَأَخبَرتُهَا أَنَّنِي قَد أُعجِبتُ بِتِلكَ المَرأَة الفَاتِنَة، قَالَت لِي العَجُوز: «ادخُل وَتَمَتَّع» بَعدَ أَنْ أَسهَبتْ كَثِيرَاً بِمَزَايَا جَمَالِهَا وَسِحرِهَا. وَلَمَّا دَخَلتُ إلى صَالَةِ الشَقَة وَقَفتُ أَمَامَهَا وَجهٌ لِوجَه وَمِن حُسنِ الصُدَف أَنَّهَا لا تَعرِّفُنِي تَمَامَاً رُغمَ مَعرِفَتِي بِهَا، كَانَت شِبه عَارِيَة، وَوَجهَهَا كَلَوحَةِ رَسَامٍ مُبتَدِئ مُلَطَخَة بِالأَلوَان، تَلتَفُ أَنَامِلُهَا عَلَى سِيجَارَةٍ تَتَفَنَّنْ بِطَرِيقَةِ تَدخِينِهَا وَتَنفِثُ دُخَانَهَا بِوَجهِي بِوَقَاحَة وَتُحَدِثُنِي بِلَهجَةِ المُحتَرِفَاتِ مِن السَاقِطَات بِدَعوَةٍ صَرِيحَة لِمُضَاجَعَتِهَا, أَدرَكتُ بِحَرَاجَةِ مَوقِفِي تُكَبِلُنِي الحَيرَةُ عَن إيجَادِ طَرِيقَةٍ لِلهَرَبِ مِن بَرَاثِنِهَا وَأَخِيرَاً أَخبَرتُهَا أَنَّنِي لَم أَملِك نُقُودَاً تَكفِي مُؤَمِلاً إيَاهَا فِي المَجِئ فِي اليَومِ اللاحِق وَهَكَذَا تَمَكَّنتُ مِن الهَرَب.

قَال «عصام» غَاضِبَاً:

ـ لِلأَسَف إنَّكَ كَذَّابٌ لَعِين، كَيفَ تَجرُؤ أَنْ تَصِف زَوجَةَ عَمِي بِهَذِه الصِفَات، وَأَنَا أَعرِفُ أَنَّهَا مِثَالٌ لِلطُهرِ وَالفَضِيلَةِ وَحُسنِ الخُلُق؟ وَكَيفَ يَتَسَنَى لَهَا مُغَادَرَة مَنزِلَهَا وَهِي وَالِدَةٌ لِطِفلَين صَغِيرَين لَم يَكُن مَنْ يَهتَمُ بِهِمَا سِوَاهَا فَلَرُبَّمَا أَنْتَ وَاهِم بِامرَأَةٍ أُخرَى كَثِيرَة الشَبَهِ بِهَا.

قَال الصَدِيق:

.كُلُّ شَيءٍ جَائِز، مُتَمَنِيَاً أَنْ أَكُون فِعلاً عَلَى وَهمٍ، وَعَلَى العُمُوم إنْ رَغِبتَ بِرُؤيَتِهَا سَأَدُلُك عَلَى ذَلِك المَنزِل.

وَافَق «عصام» فَورَاً وَاتفَقَا عَلَى أَنْ يَذهَبَا مَعَاً فِي مَسَاءِ اليَومِ التَالِي.

وَصَلا إلى الشَارِع الـذِي بِـه العِمَـارَة التِي بِهَـا الشَـقة، فَـأَخفَى «عصام» مَعَالِم وَجهَهُ بِلِثَامٍ وَأَخَذَ يَتَوَكَّأ عَلَى عَصَا بِحُجَّةِ أَنَّهُ مَرِيض لِلتَمويـه إلى أَنْ أَقـبَلا عَلَى تِلـكَ الشَـقَة فَاسـتَقبَلَتهُمَا تِلـك العَجُـوزُ مُرَحِبَةً بِهِمَا فَسَأَلَهَا صَدِيقُ «عصام» عَن تِلك الفَاتِنَةِ التِي جَاء مِن أَجلِهَا كَمَا ادَعَى, أَدخَلَتهُمَا العَجُوزُ إلى صَالَةِ الشَقة وَطَلَبَت الانتِظَار لِكَونِهَا بِصُحبَةِ رَجُلٍ ثَرِي.

دَقَائِقُ انتِظَارٍ أَذهَلَت «عصام» بِالتَطَلُّع إلى خَفَايَا عَالَمٍ غَرِيبٍ لَم يَكُن يَألَفَـهُ سَـابِقَاً هُنَـاك الكَثِير مِـن الفَتَيَـاتِ الحَسـنَاوَاتِ بِوُجُـوهٍ مُحتَرِفَةٍ لِلعُهرِ بِعُيُونٍ غَامِزَةٍ وَابتِسَامَاتٍ لَعُوبَة وَدَعَوَاتٍ صَرِيحَة.

بَعـد دَقَـائِق خَـرَج الرَجُـل مِـن الغُرفَـةِ وَخَرَجَـت بَعـدَهُ زَوجَـةُ عَـم «عصام» وَهِي مَنثُورَةُ الشَـعرِ وَعِطرُهَا يَملأ المَكَان، تَدُورُ العِلكَةُ بَينَ فَكَّيهَا بِإغرَاء، الأَمرُ الـذِي فَاجَأ «عصام» وَأَحزَنَهُ جِداً وَأَخرَسَهُ عَن قَولِ أَي كَلام.

رَحَبَت بِالضُيُوفِ بِحَرَارَةٍ مُبتَسِمَةً بِوَجهِ صَدِيقِ «عصام»، وَهِي تُدَاعِبُهُ بِكَلِمَاتِ عِتَابٍ عَلَى هَزِيمَتِهِ فِي الأَمسِ وَأَخِيراً قَالَت: مَنْ مِنكُمَا يَرغَبُ أَوَلاً فِي الدُخُولِ مَعِي؟

أَلجَمَـت الحَيرَةُ قَلبَي الصَـدِيقَين مِـن فَـخٍ يَصـعُبُ الإفـلاتُ مِنـهُ فَاعتَذَرَ «عصام» بِالانصِرَافِ بِحُجَّةِ مَرَضِهِ أَمَّا صَدِيقُهُ عِندَمَا أَرَادَ الانصِرَاف أَمسَكَت بِه العَجُوزُ بِقُوَّةٍ قَائِلَة:

ـ مَا شَـأنَك أَيُّهَا الفَتَى؟ هَل أَنتَ تَتَجَسَس عَلَينَا؟ أم مَاذَا؟ إنْ لَم تَدخُل سَأدعُو فِلان وَفِلان لِيُمَزِقُوكَ إرَباً.

أَصبَح «عصام» بِـكَمَاشَـةٍ لا تَـرحَم وَأَدرَك أَنَّـهُ لا مَنَـاص مِـن الإذعَانِ لِرَغبَةِ العَجُوز وَإلا سَيُفتَضَح أَمرَهُ.

فِي اليَومِ التَالِي جَاء لِمُقَابَلَةِ صَدِيقِهِ «عصام» وَهُو مُطَأطِأُ الرَأسِ خَجَلاً مِن فَعلَتِهِ التِي أُرغِمَ عَلَيهَا وَلَكِن «عصام» أَدرَك جَيدَاً هَول المَوقِف وَمَا قَام بِه «عصام» رُغمَ مَرَارَتِهِ رُبَّمَا لَهُ مُبَرِرَاتُهُ لإبعَادِ الشُبُهَاتِ عَن مُلاحَقَتِهِمَا لِهَذِهِ المَرأَةِ الفَاسِقَة وَلَكِنَهُ احتَفَظَ لِنَفسِهِ بِشُكُوكٍ مُرِيبَة لِنَوَايَا صَدِيقَهُ بِفَعلَتِهِ الدَنِيئَة.

بَقِيَ «عصام» تَتَقَاذَفُهُ أَمواجُ الأَفكَارِ المُتَنَاقِضَةِ وَبِحَارُ الحَيرَةِ المُتَلاطِمَةِ بَينَ خَيَارَاتِ الصَمتِ وَقَبُولُ العَارَ أو الفَضِيحَةُ التِي تَبدُو مَلامِحُهَا جَلِيَّةٌ عَلَى الأَبوَابِ تَحتِ مَذبَحِ الشَرَفِ وَالطُهرِ حَتَى أَحَسَّ بِالحُمَى تَلتَهِم مَفَاصِلَهُ فَلازَمَ الفِرَاشَ لِثَلاثَةِ أَيَام.

كَان يُدرِكُ خُطُورَةَ الوَضعِ خُصُوصَاً عَمَهُ ضَابِطٌ بِرُتبَةٍ عَالِيَة في القُوَاتِ المُسَلَحَة، وَهُو الآن في جَبهَةِ القِتَال وَالحَربُ مُستَعِرَةٌ تُزهِقُ الأَروَاح بِالجُملَة، وَلِمَعرِفَتِهِ بِمَدَى حُبِّ عَمِهِ لِزَوجَتِهِ التِي تَفَانَى مِن أَجلِ إسعَادِهَا وَلَم يَبخَل عَلَيهَا بِكُلِّ مَا تَتَمَنَاه.

تَوَصَل «عصام» إلى قَرَارٍ بَعد أَنْ كَتَمَ هَذَا السِرَّ لِعِدَةِ أَيَام، أَنْ يَذهَب إلى عَمِهِ في جَبهَةِ القِتَال لِيُخبِرَهُ بِحَقِيقَةِ الأَمرِ.

سَفَرٌ مِن الإسكَندَرِيَة إلى الضَفَةِ الغَربِيَةِ مِن قَنَاةِ السِوَيس. قَضَاهُ «عصام» في التَفكِيرِ وَالتَهيِئَةِ بِأَنَّهُ كَيفَ يُعلِمُ عَمَهُ بِذَلِكَ الأَمر؟ ثَلاثِ سَاعَاتٍ قَضَاهَا «عصام» في القِطَارِ مِن الإسكَندَرِيَة إلى القَاهِرَة لَم يَشعُر بِالوَقتِ حِينَهَا، وَأَربَعَاً أُخَر في القِطَارِ الآخَرِ مِن القَاهِرَةِ إلى الإسمَاعِيلِيَة، إلى أَنْ وَصَل «عصام» إلى مَقَرَاتِ القِطَاعَاتِ الخَلفِيَة لِلجَبهَة، وَبَعدَهَا نُقِلَ بِسَيَارَةٍ عَسكَرِيَة إلى الخُطُوطِ الأَمَامِيَة إلى مِنطَقَةٍ يَتَعَذَّر الاستِمرَارُ فِيهَا إلا في العَرَبَاتِ المُدَرَعَة، وَبَعد الاتِصَالِ بِعَمِهِ مِن إحدَى الوَحَدَات العَسكَرِيَة

وَافَقُوا عَلَى نَقلِهِ بِإحدَى المُدَرعَاتِ لَيلاً حَتَى وَصَل إلى الخُطُوطِ المُلتَهِبَة تَحت جُنحِ الظَلامِ الكَئِيبِ الذِي يُمَزِقُهُ بَرِيقُ الانفِجَارَاتِ بَين لَحظَةٍ وَأُخرَى، في تِلكَ الأَرضِ الدَامِيَةِ التِي تَعِجُّ بِرَائِحَةِ البَارُودِ وَالمَصِيرُ الأَسوَدُ الذِي يَتَرَبَّص بِحَصدِ المَزِيدِ مِن الأَرواحِ البَرِيئَة.

بَعدُ لِقَاءٍ سَاخِن مَع العَمِ المِسكِين الذِي بَدَت عَلَيهِ مَلامِحُ الجَهدِ وَالقَلَقِ وَالخَوفِ مِن الوَضعِ الخَطِير, وَبَعد تَنَاوُلِ طَعَامِ العَشَاء دَارَت بَينَهُمَا أَحَادِيثٌ حَمِيمَة تَنَاوَلَت ذِكر الأَهل وَالأَقَارِب وَأَخِيراً استَفسَر العَمُ عَن مَجِئِ «عصام» إلَيهِ، فَأَخبَرَهُ «عصام» بِاشتِيَاقِهِ لَهُ مُدرِكاً حَجمَ الأَلَمِ الذِي سَيَتَسَبَب بِه لِعَمِهِ وَهُو مُكَلَّفٌ بِوَاجِبَاتٍ حَسَاسَةٍ وَخَطِيرَةٍ في قِطَاعٍ بِغَايَةِ الأَهَمِيَة الإستَرَاتِيجِيَة لِلعَدوِ وَأَي خَطَأٍ رُبَّمَا يُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ في ظِلِّ هَذِهِ الظُرُوفِ الحَرِجَةِ وَهُو يَحمِلُ في جُعبَتِهِ أَمراً مُرَّاً، رُبَّمَا يَمُوتُ الرَجُلُ عِندَ سَمَاعِهِ.

أَحَسَّ «عصام» بِالشَفَقَةِ وَالعَطفِ عَلَى عَمِهِ فَكَم حَاوَل تَغيِيرَ المَوضُوعِ وَالتَخَلِي عَن فِكرَةِ مُفَاتَحَتِهِ بِهَذَا السِرِّ الذِي يُقلِقُهُ، وَلَكِن إلحَاحُ عَمُهُ لَم يُمهِلُهُ عِندَمَا عَرَّفَ في نَظرَاتِهِ حَيرَةً وَذُهُول.

اضطَرَ «عصام» أَخِيراً أَنْ يَقُص لِعَمِهِ كُلَّ شَئ, كَادَ الرَجُل أَنْ يُغشَى عَلَيهِ مِن هَولِ الصَدمَةِ وَأَحَسَّ أَنَّ الأَرضَ التَهَمَتهُ فَبَدَت عَلَيهِ مَلامِحُ الاضطِرَابِ فَاحمَرَّت عَينَاهُ وَلازَمَهُ صُدَاعٌ حَاد، وَبَعد لَحظَاتٍ ذَهَب إلى مَقَرِّ القِيَادَةِ هُنَاك وَبَعد عَودَتِهِ أَخبَر «عصام» بِالعَودَةِ إلى الإسكَندَرِيَة بِصُحبَتِهِ فَوراً.

وَصَلا في صَبَاحِ اليَومِ التَالِي وَاتفَقَا عَلَى كَتمِ الأَمرِ حَتَى المَسَاء؛ لِيَذهَبَا هُنَاك إلى ذَلِك المَنزِلِ المَشئُوم, طَلَبَ «عصام» مِن عَمِهِ التَحَلِي بِالصَبرِ وَالحِكمَةِ وَيُهَدِّأُ مِن ثَورَةِ غَضَبِهِ لأَنَّ المَوضُوعَ في غَايَةِ

الأَهَمِيَة وَأَي تَصَرُّفٍ خَاطِئ سَيَقلِبُ المَوَازِين وَسَيَتَسَبَب بِفَضِيحَةٍ تَبقَى أَذيَالُهَا تُلاحِقُ سُمعَةَ وَتَارِيخَ هَذِهِ العَائِلَة الكَرِيمَة إلى الأَبَد، وَلَكِن لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي كَمَا يُقَال لأَنَّ عَمَهُ صُدِمَ عَن الكَلامِ، تَنعَكِس انفِعَالاتُهُ عَلَى نَظرَاتِ عَينَيهِ الشَارِدَةِ بِالأُفُقِ البَعِيد تَرتَسِمُ عَلَيهَا مَلامِحُ الحَيرَةِ، وَارتِجَافُ شَفَتَاهُ كَأَنَّهُ يُعَانِي مِن نِقَاشٍ مَرِيرٍ مَع ذَاتِهِ، وَارتِجَافُ يَدَيهِ يَدُلُ عَلَى أَنَّهُ غَير مُتَزِن تَمَامَاً، تَجُولُ بِخَفَايَاهُ بَرَاكِينٌ هَائِجَةٌ سَتُمَزِقُهُ بِأَيَّةِ لَحظَة.

في المَسَاء ذَهَبَا إلى العِمَارَةِ، وَوَقَفَا أَمَام الشَقَةِ المَذكُورَة وَالتقَيَا بِالعَجُوزِ الشَمطَاءِ التِي تَتَرَأس فَرِيقَاً مِن البَغَايَا المُحتَرِفَاتِ المُتَمَرِدَاتِ عَلَى الدِينِ وَتَقَالِيدِ المُجتَمَع.

رَحَبَت العَجُوزُ بِضَيفَيهَا وَأَدخَلَتهُمَا إلى صَالَةِ الشَقَة وَبَعد أَنْ ذَكَر «عصام» اسمَ مَنْ جَاءَا لِرُؤيَتِهَا بَدَأَت العَجُوزُ تُنَادِي بِاسمِهَا حَتَى خَرَجَت مِن إحدَى الغُرَف بِتِلكَ المَلابِس غَير المُحتَشِمَة وَأَصبَحَا هِي وَزَوجَهَا وِجهَاً لِوَجه، وَهُنَا لا يَنفَعُ الكَلام وَلا الاعتِذَار وَلا الكَذِب فَكُلُ شَيءٍ وَاضِحٍ وَجَلِي.

أَرَادَت أَنْ تَهرُب وَلَكِنَهُ لَم يُمهِلهَا فَأَفرَغ في جَسَدِهَا كُلَّ مَا يَحوِي مُسَدَسَهُ مِن رَصَاصَات حَتَى سَقَطَت مَيِّتَة مُضرَجَةً بِدِمَائِهَا وَسَطِ ذُهُولِ وَخَوفِ كُلِّ المُتَوَاجِدِين، فَهَرَبَت كُلُّ البَغَايَا وَالزَبَائِن أَمَّا العَجُوز فَأَطلَقَت صَوتَهَا بِالصُرَاخِ فَمَلأ ضَجِيجُهَا أَطرَافَ الحَي لا الشَارِع، فَأَقبَلَت مَجمُوعَةٌ مِن أَشبَاهِ الرِجَالِ انهَالُوا عَلَى جَسَدَيهِمَا ضَرباً بِالنَبَابِيتِ وَالهَرَاوَاتِ حَتَى تَمَكَّن أَحَدُهُم مِن ضَربِهِ عَلَى رَأسِهِ فَأَردَتهُ قَتِيلاً في الحَال، أَمَّا «عصام» فَقَد تَمَكَّن مِن الهَرَبِ رُغم جُرُوحِهِ البَلِيغَةِ وَبَعد أَنْ وَصَل إلى الأَهلِ هَرَع النَاسُ مِن كُلِّ حَدبٍ

وَصوَب، وَشَاع الخَبَرُ كَانتِشَارِ النَارِ في الهَشِيم مِمَّا أَحزَن الأَحِبَّةُ وَأَفرَحَ الشَامِتُون.

حَمَلَت الشُرطَةُ الجُثَتَين مِن تِلكَ الشَقَةِ اللَعِينَة وَعَينُ «عصام» مُغرَورَقَةٌ بِالدَمعِ عَلَى فَقدِ عَمِهِ العَزِيز، الذِي رَاحَ بِثَورَةِ غَضَبٍ غَير مَحسُوبَةِ العَوَاقِبِ كَان مِن الأَجدَرِ أَنْ يَتَصَرَّف بِالحِكمَةِ وَبِطَرِيقَةٍ تَضمَنُ حَيَاتَهُ وَسَلامَتَهُ وَيَثأَر لِشَرَفِهِ بِطَرِيقَةٍ ذَكِيَة، وَرُبَّمَا يَعذُرُهُ البَعضُ مِن هَذَا المَوقِفِ المُحرِجِ عِندَمَا وَقَفَ أَمَام زَوجَتِهِ الفَاسِقَة التِي لَطَخَت سُمعَتَهُ بِالأَوحَال وَسَحَقَت اسمَهُ وَشَرَفَهُ وَلَم تُعطِ لِمَكَانَتِهِ أَي اعتِبَار.

obeikandl.com

الانْكِسَارُ

مِن قَسوَةِ الحُزنِ الذِي يَعتَصِرُ قَلبَهَا وَمَلابِس الحِدَادِ السَودَاء التِي تَرتَدِيهَا، جَعَلا مِن المُستَحِيلِ تَحدِيدِ نَصِيبِهَا لِمَا تَبَقَّى لَهَا مِن جَمَالٍ بَعدِ خَمسِ سَنَوَاتٍ مِن العَذَابِ وَالأَلَم.

لَقَد أَصبَحَت صُورَتَهَا صَدَىً لِلحُزنِ وَمَرتَعَاً لِلبُؤسِ، يُرَافِقُ دُمُوعَهَا بَرِيقٌ جَذَابٌ مِن عَينَيهَا رُغمَ كُلِّ هَذِهِ المُعَانَاة, تَستَيقِظُ أُنُوثَتُهَا السَجِينَةِ الصَارِخَةِ مِن تَحتِ رُكَامِ مَلابِسِ الحُزنِ وَالحِشمَة.

كَان يَتَحَاشَى النَظَرَ بِعَينَيهَا كَي لا يُربِكُهَا وَهِي تَلُوكُهَا رَحَى الحَيرَةِ وَالشُرُود, أَلقَت بِهَا الأَيَامُ بَائِسَةً بَعد أَنْ رَحَل زَوجُهَا بِحَادِثٍ مُرُورِي تَارِكَاً لَهَا طِفلَين صَغِيرَين, هَاهِي ذَا تُوَدِعُ آخِر أَحِبَتِهَا بِهَذَا الوُجُودِ هُو وَالِدُهَا, تَدُورُ الأَفكَارُ بِرَأسِهِ بَين العَطفِ وَالتَشَفِّي وَلَكِن لِلقُلُوبِ التِي أَحَبَّت يَومَاً لا مَكان لِلكَرَاهِية, تَستَفِزُهُ أَفكَارٌ مُتَشَائِمَةٌ بِمَا يَعتَقِد أَنَّ الرَجُلَ إِذَا جَاعَ استَجدَى أَمَّا المَرأَةُ إِذَا جَاعَت بَاعَت، ثُم يَعُود لِيُفَنِّد هَذِهِ المَقُولَةَ بِسَبَبِ اختِلافِ سُلُوكِ النَاسِ وَأَخلاقِيَاتِهِم.

قَبلُ عَشرِ سِنِين تَقَبَّل هَزِيمَتَهُ بِتِلكَ الصَفقَاتِ السِرِيَةِ مَع القَلبِ بِلَيَالِي الأَحلامِ الضَائِعَة، عِندَمَا كَان يُعَذِبُهُ خَيَالُهَا وَحُبُهَا الوَهمِي كَمَا تَصَوَّرَهُ بِلَحظَاتِ ضَعف الذِي انقَشَع بِأَوَلِ فُرصَةٍ لِلزَوَاج رُغمَ رُضُوخَهَا لِمَشِيئَةِ ذَوِيهَا، وَكَان قَرَارُهُ النَهَائِي هُو نِسيَانُهَا لِلأَبَد.

تَـرَكَ حَيّزاً مُقلِقـاً بِذَاكِرَتِـهِ كَان مَرتَعـاً خِصبـاً لِمَزِيـدِ مِـن الهُمُـومِ وَالضَيَاع، وَمشَـاعِرٌ أَذَاقَتهُ شَتَّى طُقُوسِ العَذَاب, لا يَنبَغِي الرُضُوخُ لِفَوضَى الأَفكَار فَلَيسَ مِن الوَاقِع أَنْ يَتَقَبَّل أَنْ تَمتَزِج الأَشيَاءُ غَير المُتَجَانِسَـةِ بِعَقلِهِ مِن حُلُمٍ جَمِيلٍ وَبُغضٍ وَيَأسٍ مِن المَاضِي, آلَ إلى نَفسِـهِ بِأَن يَحسِـم الأُمُورَ فَأَغلَقَ أَبوَابَهُ بِوَجهِ مَاضٍ لا يَعُود مُطلَقاً، وَهُنَا انتَهَت عَاصِفَةُ القَلَقِ التِي تَنهَشُ رَأسَهُ.

قد كَان آخِرُ المُعَزّيين بِرَحِيلِ وَالِدِهَا في هَذِهِ الأُمسِيَةِ المُخَصَّصَةِ لِلحُزنِ رَغمِ شُـرُودِ أَفكَارِهِ لِـذِكرَيَاتِ الأَمسِ الجَمِيل، وَذَلِكِ الحُبُّ الكَبِير الذِي تَنَاقَلَتهُ أَلسِنَةُ فَتَيَاتِ الحَيّ بِحَسَد.

نَهَضَ يُرِيدُ مُغَادَرَةَ المَأتَمِ فَسَمِعَ صَوتَهَا بِتِلكَ النَبَرَاتِ التِي كَانَت تُذهِلُـهُ كَإِيقَـاعِ أَوتَـارِ قِيثَـارَةٍ حَنُـون أَعَـادَت لَـهُ ذِكرَيَـاتٍ وَرَغبَـاتٍ مَهجُورَةٍ تَبَعثَرَت بِتَلافِيفِ ذَاكِرَتِهِ.

التَفَّتَ إِلَيهَا وَبَرِيقُ الدُمُوعِ يَتَلألأُ عَلَى أَحدَاقِهَا فَوَقَفَ صَامِتاً حَتَى عَرَفَ مِن مَلامِحِهَا رَغبَتَهَا الاستِمَاعِ إِلَيهِ مُتَحَدِثاً، لَكِنَهُ خَذَلَ رَغبَتَهَا بِصَمتِهِ وَالاكتِفَاءِ بِالنَظَرِ في عَينَيهَا بِعمُق. مَاذَا يَقُول لِفَاتِنَةٍ هَجَرَتهُ بِـأَوَلِ مُفتَرَقَـاتٍ لِلطَرِيـقِ وَهُـم في ذُروَةِ قِصَـةِ حُـبٍّ جَمِيلَـة وَهَـدَرَت الكَثِيرَ مِـن مَفَاصِـلِ طُمُوحَاتِـهِ وَأَحلامِـهِ, رُبَّمَـا لا يَرتَضِـي أَنْ يَكُـون مُنَافِقَاً أَنْ حَمَّلَ نَفسَـهُ عَلَى التَجَمُّلِ أَمَامَهَا بِكَلِمَاتٍ تُنَاسِبُ المَوقِفَ المُحرِجَ، وَنِسيَانِ مَا مَضَى وَأَنَّهُ سَعِيدٌ لِعَودَتِهَا.

لَقَـد كَان كَالحَجَرِ الأَصَـمّ رُغـمَ تَخَـاذُلِ عَوَاطِفِـهِ، اقتَرَبَـت مِنـهُ مُطرِقَـةُ الـرَأسِ مَكسُـورَةَ المَشَـاعِرِ وَنَادِمَـةً عَلَى مَا مَضَى, رَفَـعَ رَأسَـهَا بِيَـدِهِ ثُـم مَسَـحَ دُمُوعَهَـا بِكُـمِّ رِدَائِـهِ, هَـدَّأَ مِـن مَخَاوِفِهَـا وَرُعبَهَـا مِـن وِحدَتِهَا وَمَآتِي الأَيَام.

انشَـغَلَت تَبحَـث بِمَخَـابِئِ مِئزَرِهَـا حَتَى أَخرَجَـت لَـهُ حِزمَـةً مِـن رَسَائِلِهِ كَدَلِيلٍ عَلَى أَنَّهَا تُكِنُ لَهُ نَفسَ ذَلِكَ الحُبَّ القَدِيم وَتَحتَفِظ، بَل تُقَـدِّس ذِكـرَاهُ إلى الأَبَـدِ, أَثَّـر بِـهِ رُؤيَـةَ الأَطفَـالِ يَمسِـكُون أَطـرَافَ مَلابِسَهُ وَفِي عُيُونِهِم دَعوَاتٌ صَامِتَةٌ لِلرَأفَةِ وَالعَطف، وَفِي ضَحكَاتِهِم تَرَجِّي لِمَنحِهِم حَنَانَاً مَفقُودَاً.

انحَنَـى يُقَـبِّلُهُم وَيُـدَاعِبَهُم بِكَلِمَـاتٍ حَنُونَـة, جَلَسَـت قُبَالَتَـهُ مُستَسلِمَةٌ لِفَيضِ عَوَاطِفِهَا وَكَانَت تَتَمَنَّى لَـو يَصفَح عَنهَا، وَتَحلُم بِعَودِهِ؛ سَعِيدَةً لِتَرمِيمِ مَا أَتلَفَتهُ الأَقدَار, لازَالَت في قَلبِ الحَبِيبَين مَحَاسـنٌ مُشـرِقَةٌ، رُغـم رِحلَـةَ العَـذَابِ كَانَـت تَنفَجِـر بِأَعمَاقِهِمَـا أَصوَاتٌ خَرسَاءٌ لِكَسرِ الجُمُودِ وَالتَصرِيحِ بِقَرَارَاتٍ تَفتَحُ آفَاقَاً رَحبَةً لِلسَعَادَة.

أَحَـسَّ فَجـأَةً بِمَشَـاعِرٍ لَذِيـذَةٍ وَأنغَـامِ حُبِّـهِ الأَوَل، أَطرَبَتـهُ حَـدَّ الوَجدِ حَيثُ انسَجَمَت رَغبَةُ الأَيَام أَنْ تُعِيدُهُ إلى أَحضَانِ حُبٍّ قَدِيم.

قَلبُ حَبِيبَتُهُ الحَائِر وَأَجسَـادٌ رَخـوَةٌ لأَطفَـالٍ أَبرِيَـاء هُـم في أَمَسِّ الحَاجَـةِ أَنْ تَكتَـنِفَهُم حِمَايَتُـهُ كَحَاضِـنَةٍ تَحفَـظُ كَـرَامَتَهُم وَتَحفَـظُ شَـذَى عِطـرَ حَبِيبَتَـهُ مِـن أَنْ يَفُـوح مُرغَمَـاً عَلَى لُصُـوصِ الأَجسَـادِ وَصَائِدِي اللَّذَات.

أَخبَرَهَـا بِرَغبَتِـهِ بِـالزَوَاجِ مِنهَـا بِرِضَـىً وَقُبُـولِ زَوجَتُـهُ بَعـد أَنْ حَرَمَتهُمَا الحَيَاةُ مِن طِفلٍ يَملأ حَيَاتَهُ مِن تِلكَ الزَوجَةِ الطَيِّبَةِ التِي طَالَمَا تَعَاطَفَت مَعَهُ لِلبَحثِ عَن امرَأةٍ أُخرَى لِعَجزِهَا عَن الإنجَاب.

ارتَعَدَت فَرَائِصُهَا وَأَجهَشَت بِالبُكَاءِ فَرَحَاً لِمَا سَمِعَتهُ، ثُم أَمسَكَت يَـدَّهُ وَقَبَّلَتـهُ بِجَبهَتِـهِ وَيَدَيـهِ بِقُـبُلاتِ أَمَـلٍ لِلفَـرَحِ الآتِي وَطُمُـوحٍ كَبِيرٍ لِنِسيَانِ المَاضِي.

رَسَائِلٌ مَجْهُوْلَةٌ فِي لَيْلٍ مُقْمِرٍ

في لَيلٍ كَانَت سُدُولُهُ سَوداءٌ، مُتَلألِئٌ باللَونِ الأَبيَضِ النَاصِعِ الذِي يَعتَلِي مُنتَصَفِهِ قَمَرٌ أَبيَض مُفتَرِشَاً ضَوءَهُ عَلَى أَسِرَّةِ النَاسِ مُتَخِذَاً مِن هَالَتِهِ رَونَقَاً جَذَّاباً عَلَى المَنَازِلِ، ذُو ضَوءٍ يَعلُو السُطُوحِ وَالمَنَازِلِ، يَجذِّبُ الآخَرِينَ بَل وَيُجبِرُهُم عَلَى التَأَمُّلِ قَلِيلاً بِهَذِهِ الأَفلاكِ التِي أَتقَنَهَا الله وَجَعَلَ مِنهَا آيَةً لِلنَاسِ في دِقَّةِ صُنعَتِهَا وَجَمَالِ مَنظَرِهَا، وَفي لَيلٍ مُزَيَّنٍ بِأَلوَانٍ لا يُمكِن أَنْ أَصِفَهَا «فَسُبحَان الله عَلَى عَظِيمِ قُدرَتِهِ التِي لا قُدرَةَ مِثلَهَا».

وَفي أَثنَاءِ التَأَمُّلِ في هَذِهِ اللَيلَةِ قَد انسَدَلَ سِدَالُ الأَفكَارِ الذِي قَادَنِي إلى التَفكِيرِ في أَشيَاءٍ لَم تَكُن هَادِفَة بِقَدرِ مَا كَانَت هَادِئَةٌ مُستَوطِنَةٌ في أَغوَارِ النَفسِ كُلَّمَا ضَاقَت النَفسُ أو استَأنَسَت ذَهَبَت لِلتَأَمُّلِ بِأَفكَارٍ كَانَت مِن نَسجِ الخَيَالِ لا وُجُودَ لَهَا.

وَمَا بَينَ ذَلِكَ التَأَمُّلِ, رَنَّ الهَاتِفُ بِنَغَمَةِ الرَسَائِلِ التِي كَانَت مَقطَعٌ لأُغنِيَةٍ مِن ذَلكِ الجِهَازِ العَجِيبِ في هَذَا الزَمَنِ، فَقَد اختَزَل الزَمَنَ، وَاختَزَلَ الوَقتَ وَجَعَل العَالَم عِبَارَة عَن قَريَةٍ صَغِيرَة.

سَرعَانُ مَا أَحدَثَت هَذِهِ النَغَمَةُ زِلزَالاً بِدَاخِلِي وَكَأَنِّي كُنتُ نَائِمَاً وَاستَيقَظتُ لِلتَوِّ، فَحِينَمَا عُدتُ مِن سَفَرِ التَأَمُّلِ في ذَلِكَ اللَيلِ بِسَبَبِ الرِسَالَةِ حَاوَلتُ ألا أَنهَض لأفتَحهَا مُحَاوِلاً التَحَكُّمَ بِأعصَابِي، لَكِن الوَاقِع غَير ذَلِكَ فَإنِّي لَم أَتَمَالَك أَعصَابِي فَنَهَضتُ وَكَأَنِّي مَرعُوبَاً مُتَجِهَاً نَحوَ المُوبَايِل.

كَانَت المَسَافَةُ تَستَغرِقُ عِدَّةَ ثَوَانٍ لِلوُصُولِ إلى الجِهَازِ لَكِن لَو تَعلَمُوا كَم هِي الأَفكَارُ وَالاحتِمَالاتِ التِي رَاوَدَت المُخَيِلَةَ قَبل أَنْ أَصِل إلى الجِهَاز.

وَاحِدَةٌ مِن تِلكَ الأَفكَارِ تَقُولُ بِأَنَّ الرِسَالَةَ هِي مِن شَرِكَةِ الاتِصَالِ لأَنَّ الشَرِكَةَ طَالَمَا تَبعَث رَسَائِلاً مُزعِجَةً وَتَافِهَةً لا تَحمِلُ مَضمُونَ أو مُحتَوَى.

أَمَّا الأَفكَارُ التِي جَعَلَتنِي أَكُون مُربَكاً هُو مَا كُنتُ أَتَمَنَاهُ وَأُفَكِرُ بِهِ طِيلَةَ حَيَاتِي هُو مَا كُنتُ أَبحَثُ عَنهَا، فَفِي أَزِقَّةِ المَنَاطِقِ بَل حَتَى مُنذُ أَيَامِ المَدرَسَةِ كُنتُ أَبحَثُ عَنهَا لَكِن مِن غَيرِ جَدوَى وَكَم تَمَنَّيتُ أَنْ تَكُون الصُدفَةُ قَد لَعَبَت دَوراً، لَكِن لَم تَلعَب.

أَحسَستُ حِينَهَا أَنَّهَا سَوفَ تَلعَب الدَورَ الذِي أَتَمَنَّاهُ فِي حَيَاتِي، فَذَهَبتُ مُسرِعَاً حَامِلاً كَثِيراً مِن الاحتِمَالاتِ التِي تُبَرِّر هَذِهِ الرِسَالَة وَبِالفِعلِ اقتَرَبتُ وَحَاوَلتُ أَنْ أَفتَحُ الجِهَاز إلا أَنَّهُ انطَفَئ لأَنَّهُ لَم يَكتَمِل الشَحن.

حَاوَلتُ تَشغِيلَهُ فَبِمُجَرَّدِ مَا أَنْ انفَتَحَ الجِهَاز أَتَت الرِسَالَةُ الثَانِيَة، وَقَبل أَنْ تَكتَمِل النَغمَة انطَفَأ الجِهَاز وَذَهَبتُ مُسرِعَاً إلى الكَهرَبَاءِ لِغَرَضِ شَحنِهِ لَكِن كَان القَدَرُ أَوَلاً وَالتَيَّارُ الكَهرَبَائِي الذِي هُو كَالعَادَةِ قَد انطَفَئ.

بَقَيتُ انتَظِر سَاعَاتٍ بَعد أَنْ كُنتُ لا أَتَحَمَّل وَلا أُطِيق اللَحظَاتِ المُستَغرِقَةِ لِلوُصُولِ إلى الجِهَاز.

صِرتُ الآن انتَظِر سَاعَاتٍ لَكِن مِن غَيرِ جَدوَى وَلَم أَتَحَمَّل عَودَةَ التَيَّارِ الكَهرَبَائِي لِشَحنِ الجِهَاز فَذَهَبتُ لأستَعِير جِهَازَ صَدِيقِي الذِي كَان يَسكُن بِالقُربِ مِنِّي وَوَضَعتُ خَطِّي فِي جِهَازِ صَدِيقِي

وَحَاوَلتُ الإسرَاع لَكِن أَخَذَ بَعضَ اللَحظَاتِ التِي كَانَت هِي عِبَارَةُ عَن سَاعَاتٍ بِالنِسبَةِ لِي وَبَعد أَنْ انفَتَح كَانَت الرِسَالَةُ تَقُول: أَنَا «لَيلَى». وَمِن ثَمَّ جُزءٌ مِن النَصِّ مَفقُود.

تَضَّجَرتُ حِينَهَا، وَحَاوَلتُ مِرَارَاً وَتَكرَارَاً وَلَكِن لَم تُجدِّ نَفعَاً وَكَان الرَقَمُ غَيرَ مَعرُوف وَذَلِكَ لأَنَّنِي لا أَعرِّفُهُ مُسبَقَاً.

حَاوَلتُ فَتحَ الرِسَالَةَ الثَانِيَة كَانَت نَفسُ مَضمُونَ الأُولَى تَقُولُ فِيهَا: أَنَا «لَيلَى» حَاوِل الاتِصَال.

وَفِي هَذِه الأَثنَاءِ جَاءَت الرِسَالَةُ الثَالِثَة مِن نَفسِ الرَقَمِ مَفَادِهَا الاعتِذَارُ عَن إرسَالِ تِلكَ الرِسَالة.

تَحَيَّرتُ حِينَهَا وَأَصبَحتُ مُرتَابَاً فِي تِلكَ الرَسَائِلِ التِي طَرَقَت حَيَاتِي وَسَرِيرَتِي وَتَفكِيرِي فِي مُنتَصَفِ ذَلِكَ اللَيلِ المُقمِر.

ظَنَنتُ حِينَهَا أَنَّ تِلكَ مُزحَةً مِن أَحَدِ الأَصدِقَاء، أو مِن أَحَدِ مَعَارِفِي وَحَاوَلتُ ألا أُعِير لَهُنَّ أي اهتِمَام لَكِن لَم أَستَطِع حَاوَلتُ الاتِصَال، فَكَانَ الوَقتُ قَد تَأَخَّر إلى مَا بَعدِ مُنتَصَفِ اللَيل، لَكِن حَتَى هَذَا الاعتِبَار لَم آخُذهُ بِعَينِ الاعتِبَارِ وَاتَصَلتُ لَكِن كَانَ الجِهَازُ مُغلَقَاً، فَتَأَكدتُ أَنَّ تِلكَ الرَسَائِلَ مِن فَتَاةٍ لأَنَّهُ لَطَالَمَا النِسَاءُ يُحَاوِلنَ غَلقَ أَجهِزَتَهِنَ بَعدَ مُنتَصَفِ اللَيل.

قَرَرتُ حِينَهَا أَنْ أَتَصِل فِي الصَبَاح، لَكِن كَيف استَسِيغُ النَومَ فِي تِلكَ اللَيلَةِ؟ بِالفِعل لَم أَستَطِع النَوم وَلَم أَستَسِغه، وَكُنتُ أَنتَظِر الصَبَاحَ عَلَى أَحَرّ مِن الجَمر.

أَتَى الصَبَاح! وَكَيفَ أَتَى؟ وَانتَظَرتُ حَتَى كَان الوَقتُ مُنَاسِبَ لِلاتِصَال، وَحَاوَلتُ الاتِصَال وَأَنَا حَامِلٌ كَثِيرَاً مِن التَوَجُسِ وَاللَّهفَةِ وَالرِيبَةِ فِي نَفسِ الوَقت، لَكِن كُلُّ هَذَا قَد تَلاشَى بِمُجَرَّدِ حَاوَلتُ

الاتِصَال لأَنَّ الجِهَازَ لَم يَزَل مُغلَق.

مَرَّت أَيَامٌ عَلَى هَذِهِ الحَالَة، وَفي ذَاتِ لَيلَةٍ أَشبَهِ بِالأُولَى التِي أَتَت فِيهِنَ الرَسَائِلُ الأُولَى حَاوَلتُ الاتِصَال وَكَان الجِهازُ مَفتُوحَاً، فَلَم يُكمِل الجِهَازُ الرَنَّةَ.

أَنهَيتُ الاتِصَالَ! لأَنّنِي لَم أَكُن مُستَوعِبَاً أَنَّ الجِهَازَ مَفتُوح، وَقَبل أَنْ أُحَاوِل الاتِصَال مَرَّةً ثَانِيَةً اتَصَلَ عَلَيَّ ذَلِكَ الرَقَم، وَإِذَا بِهِ صَوتٌ مَلائِكِي حَامِلاً مِن الرِقَّةِ مَا لَم أَسمَع بِهِ مِن قَبل، قَالَت: أَلُو مَنْ مَعِي؟

انتَابَنِي السُكُوتُ وَالتَلَعثُم، وَأَنَا لا أستَطِيعُ الرَدَّ، ثُم قَالَت: أَلُو مَنْ مَعِي؟

فَأَجَبتُهَا: أَلُو لَو سَمَحتِ هَذَا الرَقَم قَد بَعَثَ لِي رَسَائِلَ قَبلَ عِدَّةِ أَيَام، وَطَلَبتِ مِنّي الاتِصَال، وَبِالفِعل حَاوَلتُ الاتِصَال لَكِن المُوبَايِل ظَلَّ مُغلَق طِيلَة ذَلِك الوَقت.

فَقَالَت: نَعَم صَحِيح هَذِهِ أَنَا لَقَد أَخطَأتُ بِالرَقَمِ أَرجُو المَعذِرَة.

فَقُلتُ لَهَا: لا حَصَل خَير وَلَكنَنِي ظَنَنتُ أَنَّكِ بِحَاجَةٍ لِمُسَاعَدَة.

فَقَالَت: فِي ذَلِكَ الوَقتِ نَعَم، كُنتُ بِحَاجَةٍ لِلمُسَاعَدَة لأَنّي لَستُ مِن هَذَا المَكَان. أَمَّا الآن فَلا شُكرَاً.

عَرِفتُ أَنَّهَا غَرِيبَة، فَقُلتُ: عَفوَاً أَينَ تَسكُنِين؟

أَجَابَتْ، فَإِذَا بِهَا بِنَفسِ المَكَانِ الذِي أَسكُنُ بِهِ، وَبَدَأتُ أَطرَحُ أَسئِلَةً وَهِي تُجِيب، لَكِن لَم أُحَاوِل أَنْ أَسأَلَهَا هَل هِي مُتَزَوِجَةٌ؟ أو أَينَ مَكَانَهَا بِالتَحدِيد؟ أو مَاذَا تَعمَل؟ لأَنَّنِي ظَنَنتُ أَنَّ هَذِهِ الأَسئِلَة مِن الخُصُوصِيَات.

دَام الاتِصَالُ أَكثَر مِن عَشرِ دَقَائِق، فَتَوَادَعنَا وَأَنهَينَا الاتِصَال،

وَبَقِيتُ أَحلُم بِصَوتِهَا يَومِيَاً وَفي كُلِّ سَاعَةٍ، وَفي كُلِّ لَحظَةٍ بَقِيتُ أَرسِمُ لَهَا صِوَرَاً وَضَّاءَةً مُنِيرَةً كَذِلِكَ القَمَر، وَكُلَّمَا حَاوَلتُ الاتِصَال أَخَذَنِي حَيَائِي لِعَدَم وُجُود مُبَرِرٍ لِلاتِصَال.

مَرَّ عَلَى ذَلِكَ أَكثَر مِن أُسبُوعَين، لَكِن لَم أُطِق الانتِظَار لأَنَّنِي كُنتُ أَقُول هِي مَنْ كُنتُ أَبحَثُ عَنهَا.

حَاوَلتُ الاتِصَالَ لَكِن بَعدَ مُرُورِ أَكثَرِ مِن عِشرِينَ يَومَاً عَلَى الاتِصَالِ الأَوَل، فَوَجَدتُ حِينَهَا الجِهَازَ مُغلَقَاً وَكَررَتُ الاتِصَالَ وَبِشَكلٍ يَومِي لأَكثَر مِن شَهرٍ بَعدَ العِشرِينَ يَومَاً لَكِن سَمِعتُ الشَرِكَةَ تَرُدُّ عَلَيَّ أَنَّ الخَطَّ غَيرَ مُتَاح بِالخِدمَة.

تَيَقَنتُ حِينَهَا أَنَّنِي كُنتُ أَعِيشُ حُلُمَاً طَوِيلاً وَأَنَا في حَالَةِ التَأَمُّلِ بَاحِثَاً عَنهَا في مُخَيلَتِي فَقَط لا وُجُودَ لَهَا في الوَاقِع وَتَيَقَنتُ أَنَّهَا مِن رَسمِ الخَيَال، وَهَذِهِ الرَسَائِلَ كَانَت أُمنِيَةٌ مِن أَمَانِي القَلبِ وَالخَيَالِ لِتَكُون رَسَائِلاً مَجهُولَةً في لَيلٍ مُقمِرٍ، لَكِنَهَا في عَقلِي فَقَط.

مُذَكِرَاتُ رَجُلٍ صَرِيْحْ

مَسَحَ عَلَى شَعرِهِ الأَشيَبِ، وَعَصَبَ حَاجِبَيهِ، وَوَضَعَ نَظَّارَتَهُ الطِبِيَّةِ عَلَى عَينَيهِ؛ استِجَابَةً لِرَغبَّةٍ طَارِئَةٍ لِتَدوِينِ مُذَكِرَاتِهِ في نِهَايَةِ رِحلَةِ الأَيَام.

وَفي لَحظَاتِ اليَأسِ المُحرِجَةِ، أَرَاد أَنْ يُمَزِّق سِتَارَ عُزلَتَهُ، وَفَكُّ رُمُوزَ طَلاسِمَ أَسرَارَهُ الدَفِينَةِ التِي تُثقِل ذَاكِرَتَهُ مِن خِلالِ قَلَمٍ وَدِيعٍ وَأَورَاقٍ أَمِينَة؛ لِيُفرِغ كُلَّ شَئٍ وَيَستَرِيح إلى الأَبَد.

هُو لا يَعرِّفُ الزَيفَ وَالمُرَاوَغَة، لَقَد كَان مُنصِفَاً لِتَوثِيقِ مَا يَرَاهُ مُلزِمَاً لِوَفَائِهِ لِذَاتِهِ وَلِقَلَمِهِ فَلا دَاعِي لِلاحتِيَالِ وَرَسمِ خَرَائِطٍ لِحِكَايَاتٍ وَهمِيَةٍ أو أَحلامٍ وَرِدِيَةٍ كَاذِبَةٍ لَم تَطُلهَا خُطوَاتُهُ. مَزِيدٌ مِن الوَقتِ يَنتَظِرهُ لِتَدوِينِ زَفَرَاتِهِ المُختَنَقَةِ وَأَسرَارَهُ التِي تَطفُو عَلَى دَوَائِرِ صَمتِهِ العَفِن لِرِحلَةٍ مُمتَلِئَّةٍ بِالمُغَامَرَاتِ وَالمَتَاعِب, لا يُنكِر أَنَّهُ كَان زِيرَ نِسَاءٍ مُحتَرِف، وَلَكِنَهُ أَرَادَ تَدوِين مَشَاعِرَ الحُبِّ الحَقِيقِيَةِ التِي تَرشَحُ مِن ذَاكِرَتِهِ.

بَعدُ لَحظَاتِ صَمتٍ وَارتِشَافِ قَدَحٍ مِن المَاء، وَنَظرَاتُهُ التَائِهَةُ في رَقصَاتِ أَورَاقِ شَجَرَةٍ عَتِيقَةٍ مَع الرِيحِ قُبَالَةَ نَافِذَةِ حُجرَتِهِ, مَسَحَ شَفَتَيهِ بِكُمِّ رِدَائِهِ، ثُم أَمسَكَ قَلَمَهُ وَهُو فَاقِدٌ لِرَغبَّةِ الكِتَابَةِ عَن الحُبُّ.

أي حُبٍّ يَكتُبُ عَنهُ وَهُو يَستَهجِنُ تِلكَ الأَفكَارَ التِي تَصِفُ

مَشَاعِرَ الحُبِّ لِمَا وَاجَهَهُ مِن حِكَايَاتٍ صُدِمَ بِزَيفِهَا، أَدرَكَ أَنَّهُ مُلزَمٌ بِالكِتَابَةِ عَن كُلِّ شَيءٍ لِيُرِيح نَفسَهُ.

سَيَكتُب عَن بَرِيقِ تِلكَ العُيُونِ النَاعِسَةِ المُخَادِعَةِ التِي استَمَالَتهُ يَومَاً إلى أَعمَاقِ الهَاوِيَة. سَيَكتُب عَن تِلكَ الأَجسَادِ الصَارِخَةِ بِأُنُوثَتِهَا، وَهِي مُختَبِئَةٌ تَحتَ أَسمَالٍ مُحتَشِمَةٍ عَن عُيُونِ النَاظِرِين، وَتَمتَهِن البَغَاءَ في كُهُوفٍ عَفِنَة. سَيَكتُب عَن ذَلِكَ الجَمَالِ الصَارِخِ الذِي كَانَ يُقَايِضُهُ بِلَحظَاتِ حُبٍّ بِجِفنَةِ نُقُودٍ مِن جُهُودِهِ المَبذُولَةِ بِعَمَلِ البِنَاءِ في سَاعَاتِ الشَمسِ المُحرِقَةِ بِأَجرٍ لا يَكفِي لَحظَةً مِن مُتعَةٍ عَابِرَة سَيَندَم عَلَيهَا أَيَامَاً وَهُو يَئِنُ تَحتَ وَطأَةِ آلامِ الجُوعِ التِي تُقَطِّعُ أَمعَائَهُ.

بَحَثَ كَثِيراً بِخَفَايَا ذَاكِرَتِهِ عَن كَلِمَةِ حُبٍّ صَادِقَةٍ يُجَمِّلُ بِهَا صَفحَاتِ مُذَكِرَاتِهِ فَلَم يَتَذَكَّر سِوَى غَمَزَاتٍ شَيطَانِيَةٍ مِن عُيُونٍ سَاحِرة هَمُّهَا إفرَاغَ جُيُوبَهُ، رُبَّمَا أَصَابَهُ اليَأسُ لِعَدَمِ كِتَابَةِ مَا يَرَاهُ مُنَاسِبَاً وَيَستَحِقُ جُهدَ الكِتَابَةِ وَيُنَاسِبُ مِصدَاقِيَتَهُ.

اتَّكَأ عَلَى حَافَةِ سَرِيرِهِ يَعصُرُ صَدغَيهِ بِكَعبِ قَلَمِهِ؛ لِيَجمَع شَتَاتَ أَفكَارَهُ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ شَيئَاً مِن الكَلِمَاتِ بِمَتَاهَاتِ رُكَامِ ذِكرَيَاتِهِ المَنسِيَة. يَلعَنُ الحُبَّ بِقَلبِهِ وَكُلَّ اللَوَاتِي تَلَّذَّذنَ بِأَحضَانِهِ، وَكَانَت تُسحِرهُنَ رَائِحَةُ نُقُودُهُ.

اضطَجَعَ عَلَى سَرِيرِهِ يَنظُرُ بِسَقفِ حُجرَتِهِ وَفَجأَةً استَوَى جَالِسَاً وَأَمسَكَ بِقَلَمِهِ وَأَحَسَّ أَنَّ غُيُومَ النِسيَانِ قَد انقَشَعَت عَن عَينَيهِ وَانزَاحَ غُبَارَ السِنِين عَن أَجمَلِ ذِكرَيَاتٍ لِقِصَةِ حُبِّهِ الأُولَى مَعَ زَوجَتِهِ الرَاحِلَة، وَعُمق الحُبِّ الذِي كَانَ في سَالِفِ الزَمَان فَبَكَى خَجِلاً مِن نَفسِهِ وَمِن خَيَالِ تِلكَ الإنسَانَةِ الرَقِيقَة.

مَزَقَ أَورَاقَـهُ وَأَلقَى بِهَا بِمُهمَلاتِـهِ الكَثِيرَةِ وَعَـاد يَبحَث مِن جَدِيد عَـن أَجمَـلِ الكَلِمَـاتِ المُشـرِقَةِ التِي تَتَنَاسَـب مَـع ذِكرَيَـاتِ حَبِيبَتِـهِ وَسَـيَملأ أَورَاقَـهُ بِـأَرَقِّ العِبَـارَات وَيُعَلِّقُهَـا أَمَـامَ مَضجَعِهِ كَتَمِيمَـةٍ مُقَدَّسَـةٍ؛ وَفَـاءَاً لإنسَـانَةٍ استَهَضَت يَومَـاً مَـا بِدَاخِلِـهِ مِـن مَشَـاعِرٍ هَائِجَةٍ لِحُبٍّ صَادِق.

لِلأَسَـف أَنسَـتهُ الأَيـامُ فُصُـولَهَا بَعـدَ أَنْ غَمَرَتـهُ مَتَاهَـةُ الأَيَـامِ بِالزَيفِ وَجَعَلَتهُ الأَقدَارُ كَالدُميَةِ تَتَقَاذَفهُ أَيَادٍ لَعُوبَةٍ هَمُّهَا حِسَابَاتِ الرِبحِ وَالخَسَارَة وَلا تَهتَّم لِمَشَاعِرِ النَاسِ فِي سُوقِ الأَجسَادِ الرَخِيصَة.

obeikandl.com

آخِرُ وَدَاعٍ

أَلقَت بِهِ الحَيَاةُ إلى الهَاوِيَةِ, يَتِيمُ الأَبَوَينِ وَفَاقِدٌ لِيَدِهِ اليُمنَى بِحَادِثِ سَيرٍ مُؤسِفٍ, انتَهَى بِهِ المَطَافُ إلى الرَصِيفِ يَستَجدِيَ النَاسَ.

لَم يُفقِدُهُ التَسَوُّلُ كِبرِيَائَهُ وَعِزَّةَ النَفسِ، فَلَم يُلِّح، وَلَم يَتَكَلَّم، كَان يَكتَفِي بِالجُلُوسِ وَالنظَرِ بِعُيُونِ المَارَةِ وَيُطرِقُ رَأسَهُ حَيَاءَاً إنْ صَادَف شَخصَاً يَعرِفُهُ.

ثِيَابُهُ الرَثَّةِ مَبعَثُ سُخرِيَةَ الصِبيَةِ الصِغَارِ، أَمعَاؤُهُ خَاوِيَةٌ مِن الجُوعِ، لَقَد سَحَقَتهُ الحَيَاةُ دُونَ وَمضَةِ أَمَل لانتِشَالِهِ مِن هَذَا الوَاقِعِ المُرِّ.

يَتَسَكَّع دُونَ هَدَفٍ وَدُونَ مَأوَى، يَلجَأ إلى مُنثَنَيَاتِ الأَزِقَّةِ، وَأَحيَانَاً يَلتَجِأ إلى أَطرَافِ المَزَابِلِ مَع الحَيوَانَاتِ السَائِبَةِ حَتَى زَحَفَت عَلَى جَسَدِهِ أَمرَاضٌ جِلدِيَةٌ مُستَعصِيَة, بَكَى كَثِيرَاً بِوِحدَتِهِ وَتَمَنَّى المَوتَ لِلخَلاصِ مِن وِحدَتِهِ القَاتِلَة.

ذَاتُ يَومٍ وَقَفَت أَمَامَهُ فَتَاةٌ حَسنَاءٌ تُطِيلُ النَظَرَ إلَيهِ ثُم ابتَسَمَت بِوَجهِهِ وَأَعطَتهُ قِطعَةً نَقدِيَة وَرَحَلَت وَعَينَاهُ تُتَابِع خُطوَاتِهَا بِاستِغرَابٍ مِن هَذَا الاهتِمَامِ غَير المَعهُود.

في اليَومِ الثَانِي أَقبَلَت تِلكَ الفَتَاةُ تَجلِبُ مَعهَا مَلابِسَ وَطَعَامَاً وَنُقُودَاً، وَسَأَلَتهُ عَن حَالِهِ وَتَحَدَثَت مَعهُ بِمَوَدَةٍ لَم يَأَلَفهَا سَابِقَاً.

اعتَادَ هَذَا المُتَسَوِّلُ المِسكِينُ عَلَى زِيَارَاتِهَا المُنتَظِمَةِ وَالتَمَعُّن بِتِلكَ المَحَاسِن البَهِيَةِ التِي أَغنَتهُ عَن حُبِّ كُلِّ النَاسِ.

استَمَرَت زِيَارَاتُهَا لَهُ لأَكثَرِ مِن ثَلاثَةِ أَشهُرٍ تَمَلَّكهُ خِلالِهَا شُعُورٌ غَرِيبٌ وَلَذِيذ، وَخَفقَاتُ قَلبُهُ تَزدَادُ عِندَمَا تَغزُوهُ ذِكرَاهَا, تُلازِمُهُ لَحظَاتٌ خَجُولَةٌ عِندَ المُقَارَنَةِ غَيرِ المُتَعَادِلَةِ بَينَ حَيَاتِهِ المُمتَلِئَةِ بِالعَذَابِ وَالحُزنِ وَبَينَ حَيَاتِهَا المُترَفَةِ الفَرِحَة.

يَلقَاهَا فِي أَحلامِهِ الجَمِيلَةِ حَيثُ يُعَانِقُهَا بِشَوقٍ وَيَبكِي عَلَى كَفَّيهَا وَيَنفِثُ أَنفَاسَهُ المُختَنِقَةِ عَلَى أَكتَافِهَا وَيُقَبِّلُهَا قُبُلاتٍ سَاخِنَة، وَمَا أَنْ يَنتَهِي الحُلُم يَبكِي وَيَبكِي كَثِيراً وَيَتَمَنَّى لَو تَكُون حَيَاتُهُ حُلُماً دَائِم.

تَمُرُّ الأَيَامُ وَحُبُّهَا قَد استَولَى عَلَى مَشَاعِرِهِ وَلَوعَةُ حُبُّهَا كَالجَمرِ تَلسَعُ جَوَانِحَهُ بِأَلَمٍ, يَتَجَمَّل بِعَطَايَاهَا مِن الثِيَابِ وَبَدأ يَغسِلُ يَدَيهِ وَوَجهَهِ الذَابِل كُلَّ يَومٍ بِانتِظَارِ طَلَّتِهَا السَاحِرَة، وَلَكِن القَدَرُ سَلَبَ مِنهُ هَذَا الحُلُمَ الجَمِيلَ، لَقَد طَارَت أَحلامُهُ مَع الرِيحِ حَيثُ اختَفَت تَمَامَاً وَلَم يَعُد يَرَاهَا مُطلَقَاً.

أَحَسَّ بِالوِحدَةِ الحَقِيقِيَةِ، تَلُفُّهُ الوَحشَةُ بِردَائِهَا المُظلِم، وَلَم يُفَارِق المَكَان نَفسَهُ كَأَنَّهُ عَلَى عَهدٍ أَخلاقِي مُبرَمٌ مَع خَيَالِهَا الذِي لا يُفَارِقُهُ أَبَدَاً.

بَعدُ يَأسٍ طَوِيلٍ وَمُرُورُ سِتَةُ أَشهُرٍ تَقرِيبَاً جَاءَت إِلَيهِ وَوَقَفَت أَمَامَهُ تُطِيلُ النَظَرَ إِلَيهِ وَكَأَنَّ نَظرَاتُهَا تَتَسَلَّق طَبَقَاتِ مَأسَاتِهِ المُتَجَسِمَةِ عَلَى مُحَيَاهِ لِمَعرِفَةِ المَزِيدِ مِن أَسرَارِ ذَلِكَ الوَجهِ المُتعَب.

لَم يُصَدِّق وُجُودَهَا نَهَضَ وَاقِفَاً قُبَالَتِهَا يَرمِقُهَا بِعُيُونٍ دَامِعَة ثُم نَطَقَ بِاسمِهَا بَاكِيَاً, ابتَسَمَت لَهُ ابتِسَامَةَ عَطفٍ وَشَفَقَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَأَخبَرَتهُ بِزَوَاجِهَا وَالانتِقَالِ إِلى مَدِينَةٍ أُخرَى وَأَنَّهَا الآن فِي زِيَارَةٍ لِلأَهلِ وَجَاءَت لِرُؤيَتِهِ.

ابتَسَمَ جَاهِدَاً بِرَسمِ مَلامِحَ فَرِحَةٍ مُصطَنَعَة استِرضَاءَاً وَتَهنِئَةً

لَهَا، وَلَكِن الحُزنُ خَذَلَهُ بِفقدِهَا إلى الأَبَد فَسَالَت دُمُوعُهُ الغَزِيرَةِ مِمَّا حَدَاهَا أَنْ تَمسَح دُمُوعَهُ بِمِندِيلِهَا.

جَلَسَ عَلَى الأَرضِ وَهُوَ يُصَارِعُ سُؤَالاً طَالَمَا عَذَّبَهُ وَلَم يَجرُأ عَلَى البَوحِ بِهِ وَهُوَ سَبَبُ اهتِمَامِهَا بِهِ فَاكتَفَى بِالنَظَرِ في عَينَيهَا بِصَمتٍ وَبَينَ آوِنَةٍ وَأُخرَى يَمسَح دُمُوعَهُ بِكُمِّ رِدَائِهِ البَالِي.

قَالَت لَهُ: وَدَاعَاً رُبَّمَا لا تَرَانِي بَعدَ الآن مِمَّا زَادَهُ أَلَماً وَبُؤسَاً، أَرجُو أَنْ تَعتَنِي بِنَفسِكَ فَأَنَا أَحبَبتُكَ مُنذُ الوَهلَةِ الأُولَى لَقَد رَأَيتُ إنسَانَاً رَائِعَاً يَقبَعُ بِجَسَدِكِ المُتَهَالِكَ وَقَرَأتُ في عَينَيكَ شَكوَى خَرسَاء فَأَشفَقتُ عَلَيكَ وَلا أُخفِيكَ سِرَاً فَإِنَّ لَكَ في قَلبِي مَوَدَةً وَمَحَبَّةً كَبِيرَة, أَنْتَ ضَحِيَةٌ لِمُجتَمَعٍ قَاسٍ وَلِظُرُوفٍ أَقسَى.

قَالَتهَا ثُم وَضَعَت مَبلَغَاً كَبِيرَاً مِن المَالِ في يَدِهِ وَمَسَحَت دُمُوعَهَا مِن أَجلِهِ وَرَحَلَت تَارِكَةً خَلفَهَا إنسَانَاً مُعدَمَاً لَيسَ لَهُ أَحَدٌ يَذكُرُهُ غَيرُهَا فَلَم يَقوَ عَلَى الصُمُودِ فَسَارَ خَلفَهَا خُطوَاتٍ حَتَى اختَفَت مِنهُ بَينَ زَحمَةِ النَاسِ.

عَاد إلى مَكَانِهِ عَلَى الرَصِيفِ فَبَكَى بِصَوتٍ مُرتَفِعٍ وَبِحُرقَةٍ، ثُم انكَفَأَ عَلَى وَجهِهِ دُونَ حِرَاكٍ وَبَقِيَ عَلَى هَذَا الوَضعِ إلى المَسَاء حَيثُ اجتَمَع النَاسُ حَولَهُ، فَاقتَرَبَ إلَيهِ أَحَدُهُم يَتَحَسَس أَطرَافَهُ البَارِدَةِ قَائِلاً: يَبدُو أَنَّ هَذَا الرَجُل قَد فَارَق الحَيَاة.

تَجَمَّع النَاسُ عَلَى جُثمَانِهِ لِلتَفَرُّجِ عَلَى جُثمَانِ شَابٍ فَقِيرٍ رَحَلَ عَن الحَيَاةِ بِهُدُوء.

أَحرَقَتهُ نَارُ الجَوَى التِي أَلهَبَت خَافِقَهُ وَمَاتَ حُبَّاً بِفَاتِنَةٍ فَتَحَت أَبوَابَ قَلبَهُ لِحُبِّ جَارِفٍ وَاستَنهَضَت جَوَانِحَهُ النَائِمَةِ تَحتَ رُكَامِ الضَيَاعِ وَأَعطَتهُ حَقَّهُ كَإِنسَانٍ يُمَارِسُ مَا تُملِيهِ عَلَيهِ مَشَاعِرُهُ

فَيُحِبَّ كَالآخَرِين وَيَمُوتَ شَهِيداً كَالعَاشِقِين.

دَقَـائِق وَجَـاءَت الشُـرطَةُ تَصحَبهَا عَرَبَـةَ الإسـعَافِ، فَحَمَـلَ المُسعِفُون جُثمَانَـهُ وَسَـطَ صَيحَاتِ الأطفَـالِ .. لَقَـد مَات المُتَسَـوّل .. لَقَد مَات المُتَسَوّل.

obeikandl.com

الرَغْبَةُ العَمْيَاءُ

صَبِيٌّ صَغِيرٌ شَبَّ عَلَى حَيَاةٍ عَائِلِيَةٍ بَاذِخَةٍ أَعطَتهُ كُلَّ مَا يَحلُم بِهِ، التَحَقَ بِدِرَاسَتِهِ العُلَيَا مُتَبَاهِيَاً بَينَ أَقرَانِهِ بِمَا يَلبِسُ وَمَا يَملِك.

خَفَقَ قَلبُهُ يَومَاً لابنَةِ الجِيرَان «سمر» وَهِي طَالِبَةٌ جَامِعِيَة تَكبُرُهُ بِعَامَين وَلَكِن لِجَمَالِهَا هَيبَة أَفقَدَتهُ عَقلَهُ، فَأَحَسَّ أَنَّهَا تَمَلَّكَت قَلبَهُ فَكَان يَذُوبُ شَوقَاً لِرُؤيَاهَا، حَتَى أَدرَكَ بِهَذَا الشُعُورِ الجَمِيلِ الذَي تَمَلَّكَهُ حَدَّ الجُنُونِ.

لَم يَتَمَكَّن مِن إخفَاءِ مَشَاعِرِهِ فَاعتَرَضَهَا يَومَاً لِيَبُوح لَهَا بِمُعَانَاتِهِ وَمَا يَجُول في قَلبِهِ مِن حُبٍّ كَبِيرٍ لَهَا.

كَانَت «سمر» فَتَاةً طَيِّبَةَ القَلبِ، هَادِئَةَ الطِبَاعِ، لَكِنَهَا حَاوَلَت إقنَاعِهِ بِالعُدُولِ عَن هَذَا السَبِيلِ لِصِغَرِ سِنِّهِ، وَحَدَّثَتهُ عَن مُستَقبَلِهِ، لَكِنَهُ تَمَادَى أَكثَر في الأَيَام اللاحِقَةِ حَيثُ يَنتَظِر إشرَاقَتَهَا بِفَارِغِ الصَبرِ أَمَامِ مَنزِلِهَا وَسَاعَاتٍ طِوَالٍ أَمَامِ الجَامِعَةِ لِيَنهَل مِن رُؤيَاهَا وَيَكتَفِي أَحيَانَاً بِالنَظَرِ إلَيهَا.

أَصبَح هَائِمَاً بِحُبِّهَا وَأَصبَحَت تَصَرُفَاتُهُ تَلفِتُ أَنظَارَ المُقَرَبِين وَالغُرَبَاء حَتَى اعتَرَضُوهُ عِدَةَ مَرَّاتٍ بِالنُصحِ وَالإرشَادِ وَلَم تَنفَع مَعهُ كُلُّ الجُهُودِ.

في أَحَدِ الأَيَامِ عِندَمَا انتَظَرَهَا طَوِيلاً فَاجَأَهَا مُمسِكَاً بِذِرَاعِهَا بِقُوَّةٍ قَائِلاً:

.يَجِب أَنْ تَسمَعِي مَا أَقُول.

وَرُغمُ الرُعبَ الذِي تَوَلاهَا لَكِنَهَا تَجَلَدَت وَأَذعَنَت مُرغَمَةً لِسَمَاعِ مَا يُرِيدُ قَولَهُ, قَال:

.أَنَا قَد جُنِنتُ بِحُبِّكِ وَأَتَمَنَّى أَنْ تُدرِكِ هَذَا الشُعُورَ جَيِّدَاً، وَيَنبَغِي أَنْ تَعلَمِي أَنَّكِ لِي مَهمَا يَكُن وَإلا سَتَبكِي كَثِيرَاً مِن النَدَمِ وَافهَمِي مَا أَقصُدُهُ فَمَا عَلَيكِ إلا أَنْ تَفتَحِي نَوَافِذَكِ لإعصَارِ عَوَاطِفِي الهَائِجَة. أَنَا مُتَيَّمٌ بِكِ أَيَّتُهَا الحَسنَاء فَلا تَبخَلِي عَلَى قَلبِي فَلَرُبَّمَا أَتَمَكَّن يَومَاً مِن استِقطَابِ عَوَاطِفِكِ نَحوِي، وَأَنَا إذ جَهَرت بِخَفَايَايَ فَمَا عَلَيكِ إلا أَنْ تَحسِبِي مَوقِفَكِ وَتُحَدِدِي إرَادَتُكِ لِشَخصِي فَقَط دُونَ سِوَايَ.

قَالَت لَه «سمر»:

ـ اسمَع يَا «عمر» إنَّكَ صَبِيٌّ صَغِير أَتَمَنَّى أَنْ تَنتَبِه لِدَرَاسَتِك فَالمُستَقبَل أَمَامَكَ طَوِيل، أَمَّا الحُبُّ فَلا يُمكِن أَنْ يَكُون بِالإكرَاه، وَعَلَيكَ أَنْ تَصحُو مِن حُلُمٍ سَيُدَمِّر مَشَاعِرَك يَومَاً وَتَصحُو عَلَى وَاقِعٍ أَلِيم. أَنَا أَتَوَسَل إلَيك وَأَرجُوكَ أَنْ تَبتَعِد عَن طَرِيقِي فَأَنَا عَلَى أَبوَابِ إنهَاءِ دِرَاسَتِي وَلا أُخفِيكَ سِرَّاً أَنَا تَربِطُنِي عِلاقَةُ حُبٍّ بِشَابٍ آخَرٍ، وَأَنْتَ لازِلتَ في عَامِكَ الدِرَاسِي الأَوَل في الجَامِعَة وَهَذَا فَارِقٌ كَبِيرٌ بَينَنَا.

أَجَابَهَا «عمر»:

.الحُبُّ لا يَعرِفُ الفَوَارِق.

قَالَت «سمر»:

ـ أي حُبٍّ تَخدَع نَفسَكَ بِهِ يَا صَغِيرِي المُدَلَل، أَتَمَنَّى أَنْ تُعِيد حِسَابَاتَك وَإلا سَأَجِد نَفسِي مُرغَمَةٌ لإخبَارِ أَهلِي عَن سُوءِ

تَصَرُفَاتِك.

استَشَاط «عمر» غَضَباً مِن كَلِمَاتِهَا وَهِي تَتَحَدَّث عَن حُبِّهَا لِغَيرِهِ دُونَ تَحَفُّظ، فَحَذَّرَهَا مِن أَنْ تَخطُو أَيَّة خُطوَةٍ مِن شَأنِهَا إزعَاجِ سَكِينَتِهِ وَتُدَمِّر قَلبَهُ بِحُبٍّ غَيرَهُ وَإلا سَيَقلِب حَيَاتَهَا جَحِيمَاً كَمَا يَدَّعِي.

كُلَّمَا تَمُرُّ الأَيَام تَزدَاد مُضَايَقَاتُهُ لِـ«سمر» المِسكِينَةِ حَتَى تَجَرَّأ يَومَاً بِاللِحَاقِ بِهَا إلى دَاخِل كُلِّيَتِهَا مِمَّا اضطَرَهَا أَنْ تَشكُوهُ لِرِجَالِ الأَمنِ، فَأمسَكُوا بِهِ وَأُلقِيَ بِهِ إلى السِجن بَعد أَنْ قَرَرَت المَحكَمَةُ عُقُوبَةً صَارِمَةً وَرَادِعَة لِسُوءِ تَصَرُفَاتِهِ وَمَعاكَسَاتِهِ العَلَنِيَة.

أَضَافَت إلَيهِ أَيَامُ السَجنِ مَزِيدَاً مِن التَمَرُّدِ فَأَصبَح كَالنَمِرِ الشَرِس فَظِّ اللِسَانِ قَبِيحِ المَنطِقِ يَملأُهُ الغُرُورُ مُتَعَالِيَاً عَلَى النَاسِ فَكَم وَبَّخُوهُ وَلَم يَنفَع مَعهُ ذَلِك.

اعتَرَضَهُ يَومَاً ثَلاثَةُ شَبَابٍ مِن أَقَارِبِ «سمر» وَأَوسَعُوهُ ضَرباً حَتَى أَسقَطُوهُ أَرضَاً وَتَرَكُوهُ يَئِنُ مِن جِرَاحَاتِهِ، وَبَعد هَذَا الحَادِثِ تَفَاقَمَت المَشَاكِلُ المُتَلاحِقَة مِن تَهَوُّرِ هَذَا الفَتَى الطَائِش الذِي بَكَى مِرَاراً فِي الطُرُقَاتِ وَالأَسوَاقِ أَمَامِ النَاسِ مِن لَوعَةِ حُبِّهِ لِـ«سمر».

في إحدَى الأُمسِيَات حَدَثَ مَا لَم يَكُن في الحُسبَان عِندَمَا كَان «عمر» يَرتَاد إحدَى مُتَنَزَهَاتِ المَدِينَةِ لِيُرَفِّه عَن نَفسِهِ، فَأَوقَفَتهُ الأَقدَارُ أَمَامَ «سمر» مَع حَبِيبِهَا «حسن» وَهُو ابنُ عَمِّ أَبِي «عمر» وَزَمِيلِهَا في نَفسِ الكُلِّيَة يَجلِسَان بِإحدَى زَوَايَا المُتَنَزَّه الهَادِئَة، تَرتَسِم عَلَيهِمَا مَلامِحُ حُبٍّ كَبِيرٍ وَسَعَادَةٍ لَيسَ لَهَا حُدُود.

وَقَفَ «عمر» مَذهُولاً لَم يُصَدِّق مَا يَرَاه، لَكِنَهُ لَم يَتَمَالَك نَفسَهُ فَانقَضَّ كَاللَيثِ الغَضُوبِ عَلَى ابنِ عَمِّ أَبِيهِ يَضرِبُهُ بِكُلِّ مَا يَملِكُ مِن

قُـوَّة، فَاضـطَر ابـنُ عَـمِّ أَبيـهِ «حسـن» لِلـدِفَاعِ عَـن نَفسِـهِ فَـالتَحَمَ الاثنَان بِشِجَارٍ حَادٍ أَسـفَرَ عَن جُرُوحٍ بَلِيغَة، وَتَدَّخَل المُتَوَاجِدُون لِفَضِّ النِزَاع، الأَمرُ الذِي أَثَارَ فَضِيحَةً كُبرَى انتَشَرَت كَالعِطرِ بِمَهَبِّ الـرِيح مِمَّـا أَلـزَمَ أَهـلَ «سـمر» عَلَى اتِخَـاذِ قَـرَارٍ بِمَنعِهَـا مِـن مُوَاصَلَةِ دِرَاسَتِهَا وَضَيَاعِ مُستَقبَلَهَا وَسُجِنَت في البَيتِ وَمَنَعُوهَا مِن الخُرُوجِ نِهَائِيَاً.

أَمَّا «حسـن» فَقَـد التَجَأ إلى القَضَاءِ وَإقَامَةِ دَعوَى ضِدِّ ابنِ ابنِ عَمِّهِ «عمر» وَتَمَكَّن مِن إلقَائِهِ في السِجنِ لِمُدَةِ عَشرَةِ أَيَامٍ كَانَت أَيَامٌ رَهِيبَـةٌ وَقَاسِـيَة مَلأت ذَلِـكَ القَلـبَ المَجنُـونَ بِالحِقـدِ وَالكَرَاهِيَـةِ ضَـدِّ ابنِ عَـمِّ أَبيـهِ الـذِي سَـرَقَ حَبِيبَتَـهُ كَمَا يَتَصَـوَّر وَأَلقَى بِـهِ في السِجنِ، تَنتَابُـهُ نَوبَـاتٌ مُؤلِمَـةٌ مِن الأَفكَارِ الضَالَةِ عِندَمَا يَتَخَيَّل «سـمر» وَهِي تَغفُو بِأَحضَانِ «حسن» وَهُمَا يَتَحَدَّثَان بِأَرَقِّ عِبَارَاتِ الحُبِّ.

كَثِيرَاً مَا يُؤلِمُهُ تَجَاهُلُهَا لَـهُ وَعَـدَمُ اكتِرَاثِهَا بِمَا يُعَانِيـهِ فَمَلأ الحِقـدُ بَدَنَـهُ وَسَـمَّمَ أَفكَارَهُ وَبَـدَأَت مَلامِـحُ أَفكَـارِهِ الشِـرِيرَة تَلُـوحُ في عَينَيـهِ وَعَقلِيَتِـهِ الشَـيطَانِيَةِ تَبحَـثُ عَـن حُلُـولٍ آنِيَـةٍ لا تَرغَـب في التَـأخِيرِ وَالمُمَاطَلَةِ وَتُنهِي مَلحَمَةَ المُعَانَاةِ وَالصِرَاعِ الذِي يَحرِقُ أَحشَائَهُ.

بَعـد أَنْ أَكمَـلَ فَتـرَةَ السَـجنِ بَقَـى يَتَسَـكَّع بِشَـوَارِعِ المَدِينَـةِ دُونَ هَدَف يَبحَثُ عَن أي أَمَلٍ لِيُوصِلُهُ لِرُؤيَةِ «سلمى» المُختَفِيَةِ عَن عَالَمِهِ وَأَخِيرَاً عَلِمَ بِقَرَارِ تَركِهَا الدِرَاسَـةِ فَأَحَسَّ أَنَّ كُلَّ الأَبوَابِ قَد أُغلِقَت في وَجهِهِ فَزَادَت أَحزَانُهُ.

ظَلَّ بِالأَيَـامِ وَالسَـاعَاتِ الطِوَالِ وَهُـو يَنتَظِر أَمَامَ مَنزِلِهَا دُونَ أَنْ يَكتَرِث لِهَمسِ المَارَةِ وَاستِهزَائِهِم بِتَصَرُّفَاتِهِ الرَعنَاء.

في أَحَـدِ الأَيَـامِ رَأَى «حسـن» ابـنِ عَـمِّ أَبيـهِ يَخـرُج مِـن مَنزِلِ أَهـلِ

«سمر» فَعَلِمَ بِاليَقِينِ أَنَّ ابنِ عَمِّ أَبِيهِ قَد حَسَمَ الأَمرَ بِطَلَبِ يَدِهَا مِن أَهلِهَا فَاستَشَاطَ غَضَبَاً وَبُؤسَاً وَظَلَّ يُتَابِع خُطوَاتِ ابنِ عَمِّ أَبِيهِ إلى السُوقِ دُونَ عِلمِهِ إلى أَنْ دَخَل بِإحدَى مَمَرَاتِ المَدِينَةِ العَتِيقَةِ الضَيِّقَةِ فَبَاغَتَهُ مِن الخَلفِ وَغَرَسَ بَينَ أَضلاعِهِ سَكِيناً حَادَّاً حَيثُ أَسقَطَهُ أَرضَاً يَتَخَبَّط بِدَمِهِ وَتَمَكَّنَ «عمر» مِن الهَرَبِ بَعد أَنْ تَعَرَّف عَلَيهِ مَنْ شَهِدَ الحَادِثَةَ.

نُقِلَ «حسن» إلى المُستَشفَى وَلِلأَسَفِ لَفِظَ أَنفَاسَهُ الأَخِيرَةِ مُتَأَثِرَاً بِجُرحٍ عَمِيقٍ في القَلبِ وَلَم يَتَمَكَّن الأَطِبَاءُ مِن إنقَاذِ حَيَاتِهِ.

مَاتَ «حسن» وَهَرَبَ «عمر» إلى خَارِجِ الحُدُودِ عَن طَرِيقِ مَدِينَةِ «السلوم» المِصرِيَةِ لِيَدخُل الأَرَاضِي اللِيبِيَة.

حَاوَل الاندِمَاج مَع الوَاقِعِ الجَدِيدِ لِيَتَجَاوَز مَا سَبَّبَهُ مِن جِرَاحٍ عَمِيقَةٍ بِكَثِيرٍ مِن القُلُوبِ بِمَاضٍ آثِمٍ لَعِين يَتَمَنَّى أَنْ يَنسَاه إلى الأَبَد.

بَقَى يُصَارِع ثَورَة الضَمِير مِن تَصَرُّفَاتِهِ الشِرِيرَةِ التِي أَفقَدَتهُ قَرِيبَهُ المِسكِينَ وَمَا سَبَّبَهُ مِن الأَلَمِ لِ«سمر» الطَيِّبَة.

لَم تَمضِ عَلَيهِ إلا ثَلاثَةُ أَشهُرٍ حَتَى أُلقِيَ القَبضَ عَلَيهِ بِوِشَايَةٍ مِن أَحَدِ أَقرُبَائِهِ وَأُعِيدَ إلى أَرضِ الوَطَنِ لأَحضَانِ القَضَاءِ لِيَنَال جَزَاءَهُ لِمَا اقتَرَفَت يَدَاهُ الآثِمَة.

المُدْمِنُ

تَتَمَلَّكَهُ رَغبَاتٌ خَفِيَّة عَلَى تَدوِينِ إرهَاصَاتِهِ بِدِقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ بِكُلِّ حَيثِيَاتِهَا رُغمَ مَا يَكتَنِفُهَا مِن غُمُوض.

يَتَأَجَج بِدَاخِلِهِ لَظَى نِيرَانٍ مُستَعِرَةٍ مِن النَدَمِ لِفَقدِ المَزِيدِ مِن أَحدَاثٍ كَانَتْ مِن المُمكِن أَنْ تَضَعهُ عَلَى أَعتَابِ عَهدٍ أَفضَل تَأَلَّم عَلَى عَدَمِ استِثمَارِهَا.

تَرَكَتْ السِنُونُ رُكَاماً مِن الفَشَلِ وَاليَأسِ يُطَوِّقَان ذَاكِرَتِهِ المُتعَبَة.

كَان يَنأَى عَن ذِكرَيَاتٍ تُعَمِّقُ جُرُوحَهُ وَتُقلِقُهُ كَالكَوَابِيسِ المُرعِبَةِ وَلَكِن لا مَنَاص مِن تَصَفُّحِ أَورَاقِ الأَمسِ بَحثَاً عَن نِقَاطِ ضَوءٍ تُنِيرُ ظُلمَتَهُ وَيَبحَثُ فِي سُطُورِ حِكَايَاتِهِ عَن كَلِمَاتٍ كَانَتْ يَوماً مَبعَثُ فَخرٍ وَاعتِزَازٍ لِنَفسِهِ التِي سَحَقَتهَا الآهَات وَكَانْ فِي كُلِّ رِحلَةٍ فِي مُجَلَدَاتِ المَاضِي يَعُودُ مُنكَسِراً بِجِرَاحَاتٍ مُضَافَةٍ لِلكَمِّ الكَبِيرِ مِنَ الأَلَمِ.

كَثِيرٌ مِن رَسَائِلِ الحُبِّ لِحَبِيبَةِ القَلبِ التِي هَجَرَتهُ يَوماً بِمُفتَرَقَاتِ الحَيَاةِ لِضَيَاعِهِ بِغَيَاهِبِ مَتَاهَةِ الإدمَانِ الذِي نَالَ مِنهُ كَثِيراً.

نَظرَاتُهُ تَتَرَدَد بِمَلَلٍ عَلَى حُرُوفِ كَلِمَةِ حَبِيبِي فِي إحدَى رَسَائِلِهَا كَأَنَّهُ لَم يُصَدِّق عَينَيهِ حَتَى أَعَاد قِرَاءَتَهَا مِرَاراً بِمَا لِهَذِهِ الكَلِمَةِ مِن وَقعٍ سِحرِي وَأَبعَادٍ نَفسِيَةٍ بِقَلبِ الحَبِيب.

لَقَد أَرَادَ أَنْ يَتَأَكَد مِن مِصدَاقِيَةِ بَقَايَا بَصمَاتِ رَوحِهَا المُلتَصِقَةِ بِهَذِهِ الأَورَاقِ الحَزِينَة.

حَمَلَتهُ نَشوَةٌ مِن الخَيَالِ بِقِرَاءَةِ رَسَائِلِهَا وَذِكرَيَاتِ حُبِّهَا الجَمِيلِ قَبل الافتِرَانِ بِهَا.

بَعثَر أَورَاقَ مُذَكِّرَاتِهِ وَاضطَجَع عَلَى سَرِيرِهِ تَدُورُ بِرَأسِهِ دَوَّامَةُ الذِكرَيَاتِ لِمَا حَدَثَ بِالأَمسِ القَرِيب.

استَمَالَتهُ يَوماً فِكرَةُ احتِسَاءِ الخُمُور رُبَّمَا تُنسِيهِ مَتَاعِبَ قَلبِهِ لِحُبٍّ قَدِيمٍ لازَالَ رَاسِخَاً بِتَلافِيفِ ذَاكِرَتِهِ.

أَرَادَ أَنْ يَنتَشِل أَشلاءَ رَوحِهِ بِنَشوَةٍ كَاذِبَةٍ لا تَمنَحهُ إلا المَزِيدَ مِن البُؤسِ وَالضَيَاع.

تَكَرَرَت تَجَارِبُهُ بِاحتِسَاء المَزِيدِ مِن الخُمُورِ وَيَرتَمِي بِزَوَايَا مُظلِمَةٍ مُتَعَفِنَةٍ تَدُورُ فَوقَهَا سُحُبٌ مِن دُخَانِ سَجَائِرِهِ وَنَوبَاتُ السُعَالِ التِي تُمَزِّقُ سُكُونَ اللَيلِ هِي رَسَائِلُ هَزِيمَتُهُ إلى الإنسَانَةِ التِي أَحَبَّهَا وَاقتَرَنَ بِهَا وَهِي تَقضِي السَاعَاتِ الطِوَالِ بِانتِظَارِهِ وَهُوَ يَتَقَلَّب عَلَى صَفِيحٍ سَاخِن.

يَزدَاد انزِلاقَاً لِلهَاوِيَةِ السَحِيقَةِ وَيَبتَعِد عَن كُلِّ مَا هُو جَمِيلٌ وَمُشرِقٌ فِي حَيَاتِهِ.

تَجَاوَزَتهُ الأَيَامُ وَهُوَ مُحنِيَاً تَحتَ نَيِّرِ السُكرِ وَالتَمَنِّي وَالخَيَال مُتَجَاهِلاً أَنَّ الحَيَاة لا تَنحَنِي لِلضُعَفَاء.

زَوجَتُهُ وَحَبِيبَةُ القَلبِ التِي بَذَلَت المَزِيدَ لإيقَاظِ ذَاتِهِ مِن سُبَاتٍ فِي دَهَالِيزِ الكَسَلِ وَالسُكرِ.

مَعَ دِفءِ عِنَاقِهَا لَهُ وَفَيضِ قُبُلاتِهَا كَانَت تَنفُثُ فِي رَوحِهِ العَزِيمَةِ لِمُغَادَرَةِ مُستَنقَعِ ضَيَاعِهِ الأَسوَدِ وَتَشحَذُ مِن هِمَّمِهِ بِاللِّحَاقِ بِرَكبِ السَائِرِين نَحوَ المُستَقبَلِ البَهِيّ.

كَانَ ثَمِلاً لا يَفقَهُ مَا تَقُول وَكَانَت رُدُودُهُ كَلِمَاتٍ سَمِجَةٍ لا تُشِير إلى أَي أَمَلٍ عَن تَخَلِّيهِ عَن عَادَاتِهِ السَيِّئَةِ التِي تَمَكَّنَت مِنهُ بِشِدَّة.

كَان يَتَحَجَج بِذَرَائِعٍ شَتَّى لِيُجَمِّل انكِسَارَهُ فِي عَينَيهَا. كَم دَعتهُ

لِلانتِفَاضِ مِن غُبَارِ الوَهَنِ وَلَكِن لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي كَمَا يُقَال. يَستَسلِم بِمَرَاسِيمِ خَيَالِيَةٍ لِقَدَحٍ يَغرِزُ المَزِيدَ مِن السُمُومِ بِشَرَايِينِهِ وَسَجَائِرٍ تُزِيدُ مِن أَزمَاتِهِ الصِحِيَةِ وَتُلَوِّثُ زَفرَاتِهِ.

أَيقَنَت هَذِهِ الزَوجَةُ المِسكِينَةُ أَنْ لا طَائِلَ لِلاستِمرَارِ مَعَ جَسَدٍ مُسَجًّى لَيسَ لِخُطوَاتِهِ أي حِسَابَاتٍ في مَسَالِكِ المُستَقبَلِ وَيَرضَخُ بِاستِسلامٍ تَامٍّ لِلكَأس.

دَبَّ اليَأسُ في قَلبِهَا فَهَجَرتهُ بَاكِيَةٌ مُتَأَلِّمَة وَلَكِنَهَا تَجَرَأَتْ أَنْ تَترُكهُ لِوِحدَتِهِ لِتَلمَسَعُهُ وَخزَاتُ فِرَاقِهَا كَجُرعَاتٍ مَدرُوسَةٍ لِعِلاجٍ غَيرِ مُبَاشِرٍ لأزمَتِهِ المُزرِيَة.

لَقَد رَحَلَ عَنهُ أَحِبَّتُهُ وَبَقِيَ مُستَسلِماً لِزَفرَاتٍ وَتَنَهُّدَاتٍ وَرَوَائِحٍ نَتِنَةٍ تُزكِمُ الأَنفَاس تَسَلَلَتْ إلى كُلِّ أَركَانِ مَنزِلِهِ.

مَرَّتْ الأَيَام وَكَمْ بَكَى لِفِرَاقِهَا وَلَم تُفِدهُ دُمُوعُ وَالِدَتهُ العَجُوزُ التِي يَسمَعُ نَشِيجَ بُكَائِهَا مِن أَجلِهِ طِيلَةَ تِلكَ اللَيَالِي الكَئِيبَة.

في صَبَاحِ أَحَدِ الأَيَامِ تَجَمَّع النَاسُ عَلَى صُرَاخِ وَالِدَتهِ لإنقَاذِهِ مِن غَيبُوبَةٍ أَلَمَّت بِهِ. حَمَلَتهُ الأَيَادِي وَأَطرَافُهُ تَتَدَلَّى كَالثَوبِ البَلِيلِ إلى المُستَشفَى.

في صَبَاحِ اليَومِ التَالِي استَفَاقَ مِن غَيبُوبَتِهِ فَحَاوَل استِعَادَةَ أحدَاثِ الأَمسِ التِي أَبَى أَنْ تَتَكَرَر. مَسَح صَدغَيهِ بِعُنفٍ ثُم مَسَحَ دُمُوعَهُ التِي انهَمَرَت تِلقَائِيَاً فَاغمَضَ عَينَيهِ وَاستَسلَم لِمَفعُولِ حُقنَةٍ مُسَكِّنَة.

بَعد سَاعَاتٍ مِن نَومٍ عَمِيقٍ انتَبَهَ عَلَى هَمسَاتِ كَلِمَاتٍ مَألُوفَةٌ لِمَسَامِعِهِ وَقُبُلاتٍ دَافِئَةٍ عَلَى جَبهَتِهِ وَأَصَابِعٌ حَنُونَةٌ تَمسَحُ وَجهَهُ وَمَفَارِقَ شَعرِهِ.

فَتَحَ عَينَيهِ فَالتَقَتْ بِعَينَيهَا الذَابِلَتَين حُزناً مِن أَجلِهِ, ابتَسَم لَهَا وَضَغَطَ عَلَى أَصَابِعِ يَدِهَا وَأَرَادَ أَنْ يَتَحَدَث فَطَلَبَت مِنهُ أَنْ يَستَرخِي وَيَهدَأ.

اكتَفَتْ بِالنَظَرِ إلَيهِ بِإيحَاءَاتٍ وَدُودَة أَسعَدَتهُ وَاقتَلَعَت الأَوهَامَ مِن قَلبِهِ القَلِق بِعَدَمِ عَودَتِهَا إلَيهِ وَلَكِن قَلبَهَا الرَقِيق طَارَ إلَيهِ عِندَمَا عَلِمَت بِانتِكَاسَتِهِ.

حَبِيبَةٌ ذَكِيَة صَمَدَت ضِدَّ أَحزَانِهَا وَتَرَكَتهُ لِوِحدَتِهِ وَيَبدُو أَنَّه أَعَادَ حِسَابَاتِهِ بِعَقلانِيَة. لَقَد لَقَنَتهُ دَرسَاً لا يَنسَاه بِالقَطِيعَة وَاجتَثَّت مَنَابِعَ الإدمَانِ مِن جَسَدِهِ وَأَوقَفَتهُ عَلَى شُرفَاتٍ شَاهِقَةٍ يَرمِقُ حَقِيقَةَ الوُجُودِ وَتَمُرُّ أَمَامَ عَينَيهِ مَوَاكِبَ الأَروَاحِ السَائِرَةِ بِفَضَاءِ المَجدِ وَالسَعَادَة وَتُنِيرُهَا شَمسٌ مُشرِقَةٌ لا تَعشَق الأَروَاحَ التِي تَتَوَارَى بِشُقُوقٍ عَفِنَة.

نَهَضَ مُبتَسِمَاً مِن رِحلَةِ التَذَكُّرِ وَوَقَفَ أَمَامَ المِرآةِ يُرَاقِبُ وَسَامَتَهُ وَقَلبُهُ يُحَدِّثُهُ عَن جَمَالِ الحُبِّ فِي قَلبِ المَرأَة.

الشَّرَفُ الرَّفِيْعُ

قَلْبُ «ليلي» العَطُوفِ مُشْرِقٌ بِمَحَبَّةِ كُلِّ النَاسِ؛ مِمَّا أَضَافَ لِجَمَالِهَا هَيْبَةً وَبَرِيقاً.

فَكَانَتْ مِثَالاً لِلخُلُقِ القَوِيمِ، وَتَأَصَلَتْ بِشَخْصِيَتِهَا الكَثِيرُ مِنَ الصِفَاتِ الرَائِعَة، وَهِي صِفَاتٌ مَورُوثَةٌ لِعَائِلَةٍ عَرِيقَةِ الحَسَبِ وَالنَسَبِ، وَلَهَا مَقَامٌ جَلِيلٌ بَينَ قُلُوبِ النَاس.

كَانَتْ مُوَاظِبَةٌ وَمُجْتَهِدَةٌ وَطَمُوحَةٌ عَلَى إِكْمَالِ دِرَاسَتِهَا الجَامِعِيَة بِكُلِّ جِدٍّ وَفَخرْ.

لا تَهْتَم لِمُضَايَقَاتِ «طارق» ابنِ جِيرَانِهَا، ذَلِكَ الشَابِ الطَائِشِ الذِي تَقَدَّمَ رَاغِبَاً بِالزَوَاجِ مِنْهَا وَرَفَضَتْهُ بِحَزْمٍ، حَيثُ اعْتَبَرَ «طارق» رَفْضَهَا إِهَانَةٌ لا تُغْتَفَر.

وَكَانَتْ أَسبَابُ رَفْضَهُ لِكَونِهِ عَدِيمِ الشَخْصِيَةِ تَرَكَ الدِرَاسَةَ مُبَكِراً، يَقْضِي كُلَّ أَوْقَاتِهِ مَعَ الطُيُورِ وَمُشَاكَسَةِ الفَتَيَات.

يَوماً عِندَ عَودَتِهَا مِنَ الجَامِعَةِ التَقَتْ بِعَجُوزٍ بَدَا عَلَيهَا الضَعْفُ وَنَالَ مِنْهَا التَعَبُ أَمَامَ أَغْرَاضِهَا بِقَارِعَةِ الطَرِيقِ، وَعَينَاهَا تَسْتَعْطِفُ المَارَّةَ لِمُسَاعَدَتِها لِحَمْلِ أَغْرَاضِهَا التِي ابْتَاعَتْهَا مِنَ السُوق.

لَمَّا اقْتَرَبَتْ مِنْهَا «ليلي» تَحَرَّكَتْ عَوَاطِفُهَا، وَحَنَّ عَلَيهَا قَلْبُهَا، فَأَبْدَتْ لِلعَجُوزِ عَنْ اسْتِعْدَادِهَا لِلمُسَاعَدَةِ عَلَى حَمْلِ قِسْمٍ مِنْ أَغْرَاضِهَا، حَتَى سَارَتْ مَعهَا إِلى مَنْزِلِهَا في الزُقَاقِ المُجَاوِرِ، وَلِسَانُ العَجُوزِ يَلْهَجُ بِالشُكْرِ وَالعِرْفَانِ بِالجَمِيلْ.

تَوَسَلَتْ العَجُوزُ مِنْ «ليلي» لِلدُخُولِ إِلى المَنْزِلِ لارْتِشَافِ قَدَحٍ مِنَ

المَاءِ البَارِدِ.

وَبَعدُ رَفْضِ «ليلي» وَمُمَانَعَتِهَا رَضَخَتْ أَخِيراً لِتَوَسُلاتِ العَجُوزِ فَدَخَلَتْ إلى البَيتْ.

جَلَسَتْ في غُرْفَةِ الضُيُوفِ بِانْتِظَارِ عَوْدَةِ العَجُوزِ، وَعَيْنَاهَا تَجُوبَان بِزَوَايَا الغُرْفَةِ وَمُحْتَوَيَاتِهَا، حَتَى أَذْهَلَهَا رُؤْيَةُ قَنَانِي النَبِيذِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الكُؤُوسِ تَمْلأُ رُفُوفَ مَنَاضِدَ الغُرْفَة.

وَتَسَلْلَتْ إلى مَسَامِعِهَا ضَحِكَاتٌ وَدَرْدَشَةٌ صَادِرَةٌ مِنْ زَوَايَا المَنْزِلِ، فَتَمَلَّكَتْهَا الحَيْرَةُ مِمَّا يَحْصُل حَولَهَا، حَتَى جَاءَتْ العَجُوزُ عَلَى غَيْرِ هَيْأَتِهَا المَأْلُوفَةِ.

لَقَدْ ارْتَدَتْ مَلابِسَ زَاهِيَةً، وَلَطَّخَتْ وَجْهَهَا بِكَثِيرٍ مِنَ الدِهَانِ وَبَوْدَرِ الزِينَةِ، وَسَكَبَتْ عَلَى جَسَدِهَا الذَابِلِ وَشَعْرِهَا الأَبْيَضِ المُخَضَّبِ المَزِيدَ مِنَ الطُيُوبِ وَالرَوَائِحِ الطَيِّبَةِ، وَجَلَسَتْ أَمَامَ «ليلي» وَهِي تَحْسِرُ عَنْ سَاقَيهَا النَحِيلَتَين، وَأَصَابِعُهَا تُعَانِقُ سِيجَاراً فَاخِراً، وَتَدُورُ العِلْكَةُ بَينَ رَحَى فَكَيَّهَا دُونَ مَلَلْ، تَعْلُو وَجْهَهَا ابْتِسَامَةٌ مَاكِرَةٌ قَائِلَة:

ـ أَهْلاً بِكِ يَا ابْنَتِي الجَمِيلَة، أَنْتِ مَنْ قَادَنِي الحَظُّ إلَيكِ، وَجَلَبَكِ السَعْدُ إلى أَحْضَانِي الحَنُونَةِ، فَلِجَمَالِكِ وَرِقَّتُكِ حَظٌّ أَوْفَرَ لِطَالِبِي اللَّذَاتِ مِنْ أَعْيَانِ النَاسِ وَأَكَابِرِ القَوْمِ وَأَثْرِيَاءِ المَدِينَةِ، فَكُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكِ أَنْ تَتْرُكِي رَقَمَ هَاتِفَكِ لأَدْعُوَكِ عِنْدَمَا يَطْلُبُكِ أَحَدُ الزَبَائِن.

نَزَلَتْ كَلِمَاتُ العَجُوزِ كَالصَاعِقَةِ عَلَى قَلْبِ «ليلي»، فَانْتَفَضَتْ وَاقِفَةٌ أَمَامَ العَجُوزِ، وَهِي تَهُزُّ يَدَيهَا بِوَجْهِ العَجُوزِ قَائِلَةً:

ـ بِئْسَ الإنْسَانَةِ أَنْتِ، فَأَنْتِ وَحْشٌ بِجِلْبَابِ بَشَرْ، وَمَا مَنْزِلُكِ إلا خَمَّارَةٌ لِلشَرِّ، وَالسُوْءِ، وَمَفَاسِدِ الأَخْلاقِ، وَالرَذِيلَةِ. وَنَبِيذُكِ سِمٌّ

زُعَافٌ بِأَفْوَاهِ نُدَمَائِكِ مِنَ الأَغْبِيَاءِ وَالمُغَفَّلِين، وَأَفْكَارُكِ الشَيْطَانِيَةِ تَسْتَبِيحُ أَعْرَاضَ النَاسِ. تَقْتَنِصِينَ البَرِيئَاتِ إلى فَخِّ الزِنَا، وَلَيَالِي الخَطِيئَةِ، وَمَصْيَدَةٍ لِلأَجْسَاد.

ثُم صَرَخَتْ بِهَا قَائِلَةً:

.أَوْقِفِي رَفِيفَ حَاجِبَيكِ، فَإِنَّهَا تُزْعِجُنِي أَيَّتُهَا المَعْتُوهَة، فَجَسَدِي الطَاهِرَ أَبْعَدُ مَا يَكُونَ مِنْكِ، وَأَرْفُضُ الانْزِلاقِ بِدَهَالِيزِ بَيعِ الأَجْسَادِ الرَخِيصَة، قَبَّحَكِ الله أَيَّتُهَا اللَعِينَة، لَقَدْ خَدَعَتْنِي صُورَتُكِ الذَلِيلَةِ فِي الشَارِعِ، وَلَمْ أَعْرِفْ بِمَكْرِكِ وَحِيلَتِكِ لاقْتِنَاصِي.

ثُم دَفَعَتْهَا عَنْ الطَرِيقِ تَرُومُ الخُرُوجَ، وَلَكِنَ الجَلَبَةَ التِي أَحْدَثَتْهَا اسْتَقْطَبَتْ مَنْ فِي الغُرَفِ المُجَاوِرَةِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاء، حَتَى الْتَقَتْ عَينَا «ليلي» بِعَينَي «طارق»، ذَلِكَ الفَتَى الطَائِشَ الذِي ابْتَسَمَ بِوَجْهِهَا ابْتِسَامَةً صَفْرَاءَ لَئِيمَة، ثُم دَعَاهَا لِلهُدُوءِ وَالجُلُوسِ لِصَرْفِ الوَقْتِ مَعْهُ قَائِلاً:

.لِمَ العَجَلَةَ أَيَّتُهَا الجَمِيلَةْ؟ تَعَالِي نَطْفِئُ أَشْوَاقَنَا وَنَصْرِفُ الوَقْتْ.

كَانَ حَدِيثُ «طارق» الأَمْرَ الذِي أَثَارَ غَضَبَهَا، وَلَمْ تَتَمَالَكْ نَفْسَهَا فَبَصَقَتْ بِوَجْهِهِ، فَاسْتَشَاطَ غَضَباً، حَتَى لَعَنَهَا مُتَوَعِداً إِيَّاهَا بِفَضِيحَةٍ سَتُجَلْجِلُ سَكِينَتَهَا، وَتُدَمِّرُ حَيَاتَهَا، وَتُهَدِّدُ مُسْتَقْبَلَهَا. خَرَجَتْ «ليلي» مِنْ ذَلِكَ النَفَقِ الآسِنِ مُسْرِعَةً إلى الشَارِعِ، تَتَمَلَّكُهَا الحَيْرَةُ وَالقَلَقُ وَالنَدَمُ، لِمَا أَقْدَمَتْ عَلَيهِ مِنْ مُرَافَقَةِ تِلْكَ العَجُوزِ الشَرِسَةِ. فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَتَوَسَل «طارق» كَي يَصْمُتْ وَتُوَضِحْ لَهُ مُلابَسَاتِ القَضِيَةِ؟ وَلَكِن كِبْرِيَائُهَا أَبَى أَنْ تَنْزَلِقْ إلى حُدُودِ التَوَسُلِ المُشِينِ بِمَتَاهَاتِ دَفْعِ التُهْمَةِ عَنْهَا بِطُرُقٍ مُذِلَةٍ تُزِيدُهُ تَشَبُثَاً وَتَصَلُّباً لِلْتَمَسُّكِ بِمَبَادِئِهِ الشِرِيرَةِ لِتَحْقِيقِ مَآرِبٍ خَسِيسَة.

مَرَّتْ الأَيَامُ وَاللَيَالِ حَتَى الْتَقَاهَا يَوْماً قَائِلاً:

ـ اسْمَعِي سَأَنْتَظِرُكِ في دَارِ العَجُوزِ بَعْدِ سَاعَةٍ؛ وَإلا سَتَكُونُ سُمْعَتُكِ لِلْفُرْجَةِ المَجَّانِيَةِ، وَقَدْ أُعْذِرَ مَنْ أَنْذَرْ وَعَلَيكِ الاخْتِيَارَ بَينَ اشْبَاعِ رَغْبَّاتِي أو الفَضِيحَةْ وَأنَا بِالانْتِظَارِ يَا حُلْوَتِي.

كَانَتْ كَلِمَاتُهُ كَالسِيَاطِ التِي تَلْسَعُهَا بِقَسْوَةٍ، وَتُمَزِقُ كَرَامَتَهَا فَسَالَتْ الدُمُوعُ مِنْ عَينَيهَا بَاكِيَةٍ وَحَائِرَةٍ، فَمَا صَنِيعُهَا بِمَوْقِفٍ يَزْدَادُ تَعْقِيداً كُلُّ يَومْ مَعَ إنْسَانٍ كَشَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ؟

بَقِيَتْ «ليلى» تُصَارِعُ الأَفْكَارَ، وَتَنْهَشُهَا المَخَاوِفُ لِمَا يَتَرَبَصُ بِهَا بِمَآتِي الأَيَامِ التِي تَحْمِلُ بِرَحِمَهَا كَثِيراً مِنَ المُفَاجَآتِ المُقْلِقَة.

كَانَ تَزَاحُمُ الأَفْكَارِ بِرَأسِهَا قَدْ زَادَتْ مِنْ اضْطِرَابِهَا، وَفَقَدَتْ صَوَابَ الرَأي وَالبَصِيرَةِ، وَأَبْعَدَتْهَا عَنْ أَي فِكْرٍ سَدِيدٍ لِيُنْقِذُهَا مِنْ قُيُودِ هَذِهِ المُشْكِلَةِ التِي احْتَوَتْهَا بِعُنْفٍ.

كَمْ بَكَتْ بِخُلْوَتِهَا، وَبَدَأ جَسَدُهَا الجَمِيلِ بِمُرُورِ الأَيَامِ يَزْدَادُ ذُبُولاً، وَاكْتَسَحَ البُؤسُ مُحَيَّاهَا، وَفَارَقَتْهَا ابْتِسَامَتُهَا المَعْهُودَةِ، وَاخْتَفَتْ نَضَارَتُهَا، وَخَفِتَ بَرِيقُ عَيْنَيْهَا؛ مِمَّا أَثَارَ انْتِبَاهِ وَالِدَتِهَا التِي عَرِفَتْ لاحِقَاً تَفَاصِيلِ مَا جَرَى لابْنَتِهَا العَزِيزَةِ، وَكَانَ لَهَا مِنَ الدِرَايَةِ وَالحِكْمَةِ بِحُكْمِ العُمْرِ وَتَجَارُبِ الحَيَاةِ، فَقَرَرَتْ أَنْ تُخْبِرَ وَالِدَ «ليلى» وَأُخَوَتَهَا بِكُلِّ شَيءٍ وَبِسُرعَةٍ؛ كَي لا يَتَمَكَّنْ ذَلِكَ الشَابُ المَهْوُوسُ مِنْ أَنْ يَسْتَفِزَ حَيَائَهَا وَيُضْعِفُ مُقَاوَمَتَهَا وَالنَيْلَ مِنْهَا.

عَرَفَ جَمِيعُ الأَهْلِ مُعَانَاتَهَا؛ فَقَرَّرُوا إرْسَالَ وَالِدَةَ «ليلى» إلى مَنْزِلِ تِلْكَ المُومِسِ البَاغِيَةِ لِلْتَأَكُدِ مِمَّا جَرَى لابْنَتِهَا، وَفِعْلاً أَكَدَّتْ لَهَا تِلْكَ الشَيْطَانَةُ بَرَاءَةَ «ليلى» مِنْ كُلِّ اتِهَامٍ، وَسَلامَةِ طُهْرِهَا، وَكَيْفِيَةِ اسْتِغْفَالِهَا بِالدُخُولِ لِهَذَا المَنْزِلِ الوَضِيعِ، وَمَا تَجَنَّى بِهِ «طارق» لِهَا

إلا مَحْضُ افْتِرَاءٍ لا أَسَاسَ لَهُ مِنَ الصِحَةْ.

أَحَدِ الأَيَامِ اعْتَرَضَهَا «طارق» وَمَلامِحُ الغَضَبِ تَتَمَلَّكُهُ قَائِلاً:

ـ اعْلَمِي يَا «ليلى» أَنَا مُتَأَكِّدٌ مِنْ طَهَارَتِكِ وَشَرَفِكِ، وَلَكِن مِنَ الغَبَاءِ أَنْ أَتْرُكَ هَذِهِ الفُرْصَةَ التِي مَنَحَهَا لِي القَدَر، فَهَذِهِ فُرْصَتِي وَمَا عَلَيكِ إلا الانْصِيَاعُ لِمَطَالِبِي، وَهِي بِبَسَاطَةٌ عَلَيكِ أَنْ تَخْتَارِي بَينَ حَالَتَين، أَوَلْهُمَا أَنْ تَقْبَلِي بِي زَوْجَاً وَبُدُونِ أي شُرُوطْ، أو مُطَاوَعَتِي لِعَلاقَةٍ سِرِيَةٍ ثَمَنَاً لِسُكُوتِي لِرُؤْيَتِي لَكِ في بَيتِ البَغَايَا وَإلا سَتَكُونُ حَيَاتُكِ عَلَى فُوَهَةِ بُرْكَانٍ سَيُدَمِرُكِ.

وَبَينَمَا هُوَ يَتَكَلَم وَإِذَا بِأَخِ «ليلى» يَقِفُ أَمَامِهِ وَجْهٍ لِوَجْهْ، وَبَعدِ مُشَادَةٍ كَلامِيَةٍ الْتَحَمَ الرَجُلان بِمَعْرَكَةٍ حَامِيَة.

أَخْرَجَ «طارق» مُسَدَسَهُ الذِي لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ اسْتِخْدَامِهِ لأَنَّ الأَخِيرَ غَرَزَ سَكِينَهُ الحَادِ بِجَسَدِهِ وَطَعَنَهُ عِدَةِ طَعْنَاتٍ أَرْدَتْهُ إلى الأَرْضِ يَتَخَبَّط بِدَمِهِ مِمَّا جَمَّعَ المَارَةُ حَولَهُمَا.

نُقِلِ جُثْمَانُ «طارق» إلى المُسْتَشْفَى وَقَد فَارَقَ الحَيَاةَ، وَأَصَابِعُهُ لازَالَتْ تَلْتَوِي عَلَى المُسَدَسِ، وَالسَكِينُ يَغْفُو بِجَسَدِهِ الطَرِي النَازِفْ. أُلْقِيَ القَبْضَ عَلَى أَخِي «ليلى» الذِي حُكِمَ عَلَيهِ لاحِقَاً بِحُكْمٍ مُخَفَّفٍ بِحِجَةِ الدِفَاعِ عَنْ الشَرَفِ وَعَنْ النَفْسِ.

سَارَتْ الأَحْدَاثُ بِسُرْعَةٍ، وَهَدَأَتْ العَاصِفَةُ، وَأَصْبَحَ كُلُّ شَئٍ بِحُكْمِ المَاضِي، وَرُغْمَ خَلاصِ «ليلى» حَيثُ انْزَاحَ عَنْ كَاهِلِهَا ذَلِكَ الثِقَلَ الذِي هَدَدَهَا طَوِيلاً، لَكِنَ قَلْبُهَا ظَلَّ حَزِينَاً أَبَدَ العُمْرِ لِمَصْرَعِ ذَلِكَ الشَابِ المِسْكِين قُرْبَانَاً لِشَرَفِهَا الرَفِيعِ وَطَهَارَتِهَا.

بَقِيَتْ أَحْزَانُهَا دَفِينَةٌ تُقَطِّعُ نِيَاطَ قَلْبَهَا، كُلَّمَا تَذَكَّرَت تِلْكَ الأَحْدَاثَ، وَلا تَسْتَطِيعُ البَوْحَ بِهَا لأَحَدٍ، وَمِنْ عَذَابِ الضَمِيرِ الذِي

يُلاحِقُهَا، وَدَمُ «طارق» يَصْبِغُ أَحْلامَهَا كُلَّ لَيْلَةْ.

obeikandl.com

الهَفْوَةُ

لا يَنْسَّ «عماد» تِلكَ اللَحظَاتِ الرَائِعَةِ التِي أَوقَفَتهُ يَومَاً أَمَامَ فَتَاةٍ جَامِعِيَةٍ سَاحِرَةِ الجَمَال.

كَانَت بِرِفقَةِ ابنَةِ عَمِّهِ حَيثُ رَافَقَهُمَا إلى أَبوَابِ الجَامِعَةِ، وَعَادَ مُضطَرِبَ القَلبِ، مَشلُولَ الفِكرِ مِنْ مَشَاعِرٍ غَرِيبَةٍ استَولَت عَلَيهِ، وَأَحَاسِيسَ لَذِيذَةٍ تَمَلَّكَتْ قَلبَهُ لَمْ يَتَذَّوقَهَا مِنْ قَبلِ، وَمَشَاعِرَ إعجَابٍ عَنِيفَةٍ لِهَذِهِ الفَاتِنَةِ، وَرَاحَ يَتَمَّنَى لَو يَنْعَم بِلُقيَاهَا مُجَدَّداً.

اصطَنَعَ كَثِيراً مِنَ الحِجَجِ لانتِظَارِهَا بِطَرِيقِ عَودَتِهَا مِنَ الجَامِعَةِ، وَفِي أَحَدِ الأَيَامِ وَبَعدِ أَنْ طَالَ انتِظَارُهُ، أَقبَلَت تِلكَ الفَتَاةُ لِوَحدِهَا، التَقَت نَظَرَاتُهُمَا، وَتَلَعثَم لِسَانُهُ مِنْ قَولِ أَيَّةِ كَلِمَةٍ، فَتَجَاوَزَتهُ خُطُوَاتٍ، فَخَشَى «عماد» أَنْ تَضِيع مِنهُ فُرصَةٌ ثَمِينَةٌ يَندَمَ عَلَيهَا لاحِقَاً، فَنَادَى عَلَيهَا، قَائِلاً:

.«هدى» أَرجُوكِ انتَظِرِي

فَوَقَفَت «هدى» تَتَطَّلَع إلى وَجهِهِ الشَاحِبِ خَجَلاً، وَحَالَتِهِ المُضطَرِبَةِ، فَقَالَ:

.أَتَسمَحِي لِي بِمُرَافَقَتِكِ

فَاعتَذَرَت «هدى» بِطَرِيقَةٍ وَدُودَةٍ وَهَادِئَةٍ، وَكَانَت أَسبَابُهَا وَجِيهَةٌ وَمَنطِقِيَةٌ؛ خَشيَةَ أَنْ تَقَع تَحتَ أَنظَارِ مَنْ لا يَرحَم، وَالكَلامُ يَطُولُ مِمَّا يُعَرِّضُهَا لِلحَرَجِ، وَقَد يُؤَثِّرُ عَلَيهَا سَلبَاً.

اضطَرَ «عماد» لِلصَمتِ، وَالرُجُوعِ رَغمِ مَا يَشعُرُ بِهِ مِنْ انتِكَاسَةٍ مِنْ نَوبَةِ الإحرَاجِ وَالخَجَلِ مِنْ مَوقِفٍ لامَ نَفسَهُ كَثِيراً عَلَيهِ.

بَقِي مُنكَسِراً حَزِيناً لِضَيَاعِ فُرصَةٍ ثَمِينَةٍ كَانَ يُوَدُ أَنْ يُخبِرُهَا عَنْ فَيضِ مَشَاعِرٍ وَخَفَايَا قَلبِهِ وَلَنْ تَمنَحَهُ الأَقدَارُ هَذِهِ الفُرصَةَ.

لَمْ تُوَاجِهُ «عماد» هَذِهِ المَشَاعِرِ الرَقِيقَةِ مِنْ قَبلِ خِلالِ دِرَاسَتِهِ الجَامِعِيَةِ لأَيَّةِ فَتَاةٍ إلى أَنْ حَصَلَ عَلَى شَهَادَتِهِ مِنْ «المَعهَدِ العَالِي لِلحَاسِبِ الآلِي بِالكِينجِ مَريُوط».

أَحَدِ الأَيَامِ قَصَدَ مَنزِلَ ابنَةِ عَمِّهِ وَكَانَ جُلُّ حَدِيثِهِمَا يَدُورُ حَولَ «هدى» وَأَخلاقِهَا وَأَسرَارِهَا وَهِوَايَاتِهَا وَلَمْ يَسمَع «عماد» إلا مَا زَادَهُ تَعَلُّقاً وَحُبًّا بِهَا مِنَ المَدِيحِ وَالكَلامِ الجَمِيل، وَلَكِن «عماد» استَغَلَ لَحظَاتِ انشِغَالِ ابنَةِ عَمِّهِ بِإحضَارِ الشَاي حَتَى تَمَكَّنَ مِنْ سَرِقَةِ رَقمِ هَاتِفِ «هدى» مِنْ هَاتِفِهَا المَحمُولِ وَعَادَ فَرِحاً لِحُصُولِهِ عَلَى بَرِيقِ أَمَلٍ رُبَّمَا يُوصِلُهُ لِقَلبِ «هدى» بِدُونِ مُعَانَاةٍ وَيَبُوحُ لَهَا مَا عَجَزَ عَنهُ سَابِقاً.

فِي صَبَاحِ يَومٍ جَمِيل كَانَت «هدى» تَجلِسُ مَعَ زَمِيلاتِهَا الطَالِبَات حَتَى رَنَّت نَغَمَاتُ هَاتِفِهَا بِرَقمٍ غَرِيبٍ وَصَوتِ رَجُلٍ لَمْ تَألَفهُ سَابِقاً، وَلَكِن سَرعَان مَا عَرَفَت مَنْ المُتَحَدِّث.

أَلقَى «عماد» عَلَيهَا التَحِيَةَ قَائِلاً:

ـ أَنَا «عماد» أُوَدُ أَنْ أُحَدِّثُكِ عَمَّا يَجُولُ بِخَاطِرِي وَبِمَشَاعِرِي نَحوكِ، وَأُطلِعُكِ عَلَى لَوَاعِجِ حُبِّي الكَبِيرِ لَكِ وَمَكنُونَاتِ قَلبِي، فَأَنَا مُغرَمٌ بِكِ بِجُنُونٍ أَيَّتُهَا السَاحِرَة.

كَانَت «هدى» تَسمَعُهُ وَهِي صَامِتَةٌ، إلى أَنْ ابتَعَدَت قَلِيلاً عَنْ زَمِيلاتِهَا، ثُمَّ قَالَت لَهُ:

.مِنْ أَينَ حَصَلتَ عَلَى رَقمِ هَاتِفِي؟!

وَهُنَا أَدرَكَ «عماد» بِحَيرَتِهِ وَلا مَجَالٌ لِلإنكَارِ، فَقَالَ لَهَا:

.سَرِقتُهُ مِنْ ابنَةِ عَمّي.

فَأَجَابَتهُ «هدى»، قَائِلَةً:

ـ أَلا تَخجَـل أَنْ تَتَصَـرَّف كَـاللِّصِ، مِمَّـا يُؤَكِـدُ عَلَى شَخصِـيَتِكَ الهَزِيلَـةِ، وَتَصَـرُّفَاتِكَ لا تَلِيـقُ بِرَجُـلٍ مُـتَعَلِّم، وَاسـمَع يَـا هَـذَا يَنبَغِي عَلَيـكَ أَلا تُعَـاكِس بَنَـاتِ النَـاسِ، وَكَلِمَاتِـكَ المُنَمَقَـةِ التِي تَلَوتَهَـا بِمَسَـامِعِي نَسـمَعُهَا كُلَّ يَومٍ مِنَ المُتَسَكِّعِين وَالمُتَشَـرِّدِين فِي الشَـوَارِع، وَأَدعُوكَ أَنْ تَمسَح رَقمَ هَاتِفِي وَإِلا سَتَكُونُ الأُمُورُ غَيرَ سَعِيدَةٍ مَعَك.

أَغلَقَت الهَاتِف بِوَجهِهِ, شَعَر «عماد» بِدُوَارٍ عَنِيفٍ، وَكَأَنَّ الأَرضَ ابتَلَعَتـهُ، وَغلَيَـانٍ يَحصُـدُ أَحشَـائَهُ، وَعَـرَقٍ غَزِيـرٍ اكتَسَـحَ جَبهَتَـهُ، فَانكَفَأ عَلَى وَجهِـهِ حَزِينـاً مُتَأَلِمَاً مِنْ هَـولِ الصَـدمَةِ التِي لَـمْ يَتَوَقعَهَا أَبَـداً مِـنْ فَتَـاةٍ بِهَـذِهِ الرِّقَّـةِ، مُتَنَاسِـيَاً حَقَّهَا بِالمُحَافَظَـةِ عَلَى سُـمعَتِهَا وَشَـرَفِهَا.

مَرَّت عَلَيهِ أَيَامٌ يَعُومُ بِأَمواَجِ الأَفكَارِ، فَيَبنِي صُرُوحَاً مُشَيَّدَةً مِنَ الأَحلامِ لَيلاً، وَتَهـدِمُ اليَقَظَةُ مَا بَنَـاهُ نَهَـارَاً، وَمِمَّا زَادَ أَلَمَهُ مُخَاصَمَتِهِ لابنَةِ عَمّه التِي أَغلَقَت البَابَ فِي وَجهِهِ، وَطَرَدَتهُ فِي ثَورَةِ غَضَب.

بَقِيَ «عمـاد» لأَيَـامٍ مَهمُـومَ البَـالِ، مَشـدُوهَ الفِكرِ، حَـائِرَ القَلـبِ، حَيثُ أَحَسَّ أَنَّ الحَيَاةَ قَد أَغلَقَت كُلَّ أبوَابِهَا بِوَجهِهِ، فَبَدَأَ قَلبُهُ يَدُقُّ بِنَبَضَـاتٍ مُعَاكِسَـةٍ، بِمَـا يَعتَرِيهَـا مِـنْ غَـيظٍ وَكَرَاهِيَـةٍ، وَنَغَمَـاتُ حُـبِّ الانتِقَـامِ تَعلُـو أَفكَارَهُ، فَقَـرَرَ أَنْ يُسِـيءَ لِسُـمعَتِهَا، وَيَسحَق كِبرِيَائِهَـا، وَإِذلالِهَا، فَدَعَى حِفنَةً مِنَ الأَوغَادِ مِنَ الذَينَ لا عَمَلَ لَهُم إلا مُتَابَعَةَ الفَتَيَـاتِ، وَحَـدَّثَهُم عَـنْ مَعرِفَتِـهِ بِفَتَـاةٍ مِـنْ بَائِعَـاتِ الهَـوَى، وَضِـيعَةِ الخُلُـقِ، وَعـدَّدَ لَهُـم أَسـمَاءَ وَهمِيَـةً مِـنَ الـذِينَ مَارَسُـوا البَغَـاءَ مَعهَـا مُقَابِلَ حِفنَـةٍ مِنَ المَالِ، وَأَعطَاهُم رَقمَ هَاتِفَهَا وَاصطَحَبَهُم إلى فِنَاءِ

كُلِيَتِهَا لِيُشِيرَ إِلَيهَا وَهِي تَتَبَختَرُ بَينَ زَمِيلاتِهَا كَالطَاوُوسِ.

كَمْ تَضَجَرَت مِنْ مُلاحَقَاتِ هَؤُلاءِ الأَوغَادِ، وَرَنِينِ هَاتِفِهَا لا يَنقَطِع مَعَ أَسوَءِ الكَلِمَاتِ وَالدَعوَاتِ الوَقِحَةِ لِلفَسَادِ؛ مِمَّا اضطَرَهَا لِتَغيِيرِ رَقمِ هَاتِفِهَا وَبَقِيَ البَعضُ مِنهُم يُلاحِقَانِهَا؛ مِمَّا وَضَعَهَا أَمَامِ مُشكِلَةٍ كَبِيرَةٍ، كَانَت أَفضَلُ خَيَارَاتِ حَلِّهَا وَتَجَاوُزِهَا هُو تَركُ دِرَاسَتِهَا.

نَدَمَ «عماد» كَثِيراً عَلَى مَا فَعَلَهُ مَعَ هَذِهِ الفَتَاةِ المِسكِينَةِ مِنْ فِعلٍ مُشِينٍ لا يُغتَفَر لا لِشَئٍ إلا رَفضِهَا طَرِيقَتَهُ التِي انتَهَجَهَا بِالتَوَصُلِ إِلَيهَا وَالإفصَاحِ عَنْ حُبِّهِ وَمَشَاعِرِهِ وَلا يُنكِرُ أَنَّ هُنَاكَ فِي قَرَارَةِ قَلبِهَا إعجَابٌ لَهُ وَمُيُولُ انجِذَابٍ، وَلَكِنَهَا استَهجَنَت تَصَرُفَاتَهُ.

لا يَنبَغِي بِأَنْ يَستَنجِد بِمَجمُوعَةٍ مُتَوَحِشَةٍ مَهوُوسَةٍ بِمُلاحَقَةِ الفَتَيَاتِ فَرَأَى مِنَ المَنطِقِ وَالوَاجِبِ أَنْ يُصلِحُ مَا دَمَرَّهُ بِحِقدِهِ وَأَفكَارِهِ الشَيطَانِيَةِ، وَعَادَ قَلبَهُ مِنْ جَدِيدٍ يَحِنُ وَيَدُقُّ لِحُبٍّ أَصبَحَ كَالمُستَحِيلِ أَنْ يَتَحَقَّق بِظِلِّ ظُرُوفٍ تَعَقَدَت أَكثَر، وَرُبَّمَا امتَزَجَ حُبُّهُ هَذِهِ المَرَّةَ بِمَشَاعِرٍ مِنَ العَطفِ وَالشُعُورِ بِالذَنبِ تِجَاهِهَا.

مِنْ غَيرِ السَلِيمِ وَالمَعقُولِ أَنْ يَتَوَسَل لِثُلَةٍ مِنَ المُنحَرِفِين، أَنْ يَتَوَقَفُوا عَنْ مُلاحَقَتِهَا وَأَنْ يَعتَرِف لَهُم عَنْ كَذِبِ ادِعَائِهِ، وَقَدْ امتَلأَت أَفكَارُهُم بِأَبشَعِ التَصَوُرَاتِ، بِكُلِّ مَا يُسِيءُ لِسُمعَتِهَا، وَأَسوَءُ الظُنُونِ بِأَخلاقِهَا.

تَعَرَّضَ «عماد» لِوَعكَةٍ صِحِيَةٍ حَادَةٍ؛ أَقعَدَتهُ الفِرَاشَ سَقِيمَاً عَلِيلاً، يَئِنُ اشتِيَاقَاً لِرُؤيَاهَا، وَلَمْ يَتَمَالَك نَفسَهُ بِاخفَاءِ سِرٍ طَالَمَا عَذَّبَهُ طِيلَةَ الفَترَةِ السَابِقَة، فَأَعلَنَ حُبَّهُ أَمَامِ الأَهلِ وَالأَحِبَّةِ؛ مِمَّا حَدَا بِالبَعضِ مَنْ لَهُم بَاعٍ طَوِيلٍ بِفِعلِ الخَيرِ وَالتَوَاصُلِ، وَبِمُسَانَدَةِ

الكَثِيرِ مِنْ أَعيَانِ المِنطَقَةِ وَوُجَهَائِهَا، تَمَكَّنُوا مِنَ الحُصُولِ عَلَى مُوَافَقَةِ أَهلِ «هدى» عَلَى الخُطُوبَةِ التِي رَفَضَتهَا «هدى» فِي بَادِئِ الأَمرِ، وَبَعدَهَا رَضَخَت لِرَغبَةِ الأَهلِ وَالأَصدِقَاءِ، وَلِلسُمعَةِ الحَسَنَةِ التِي تَتَمَتَّعُ بِهَا أُسرَتُهُ، وَكَذَلِكَ «عماد» نَفسَهُ، فِيمَا عَدَا تِلكَ الهَفوَةُ التِي لَمْ يُسَامِح نَفسَهُ عَلَيهَا أَبَداً، وَمُعَانَاتُهُ الدِائِمَةِ مَعَ ثَورَةِ الضَمِير.

فِي أُمسِيَةٍ جَمِيلَةٍ يَومَ احتِفَالِيَةِ زَوَاجِ «عماد» وَ«هدى» جَاءَ الجَمِيع يُقَدِّمُونَ التَهَانِي لِلعَرُوسَين وَهُم فِي فَرَحٍ غَامِرٍ, مِنْ بَينَ الجُمُوعِ أَطَلَّت تِلكَ الرُؤُوسُ العَفِنَةُ لأُولَئِكَ الشَرذِمَةِ الضَالَةِ مِنْ الذِينَ حَوَلُوا حَيَاتَهَا إِلَى جَحِيمٍ بِتَحرِيضٍ مِنْ «عماد»، فَوَقَفُوا جَمِيعَاً، وَكَمْ كَانَت صَدمَتُهُم مِمَّا رَأُوه، وَعَرَّفُوا العَرُوسَةَ مَنْ تَكُون، فَذُهِلُوا وَالتَزَمُوا الصَمتَ مِنْ مُفَارَقَاتِ القَدَرِ العَجِيبِ، أَنْ يَتَزَوَج «عماد» مِنْ فَتَاةٍ شَوَّه سُمعَتَهَا يَومَاً أَمَامَ الجَمِيعِ، وَوَصَفَهَا بِأَسوَأ الأَوصَافِ، فَكَمْ هَذَا الشَابُ وَضِيعُ الخُلُقِ وَسَافِل، فَكَيفَ يَرتَضِي الزَوَاجَ مِنْ بَائِعَةِ هَوَى، وَبَقِيَت كَثِيرٌ مِنَ التَسَاؤُلاتِ فِي قُلُوبِهِم دُونَ أَجوِبَةٍ مَعَ رَغبَةِ أَحَدُهُم التِي أَعلَنَهَا أَنَّهُ يَرغَبُ أَنْ يَبصِق بِوَجهِ «عماد» وَزَوجَتِهِ اللَّعُوبِ التِي استَحوَذَت عَلَى قَلبِهِ.

تَرَكُوا الحَفلَ وَخَرَجُوا وَهُم يَلعَنَانُهُ وَبَقِيَ «عماد» مُطرِقُ الرَأسَ لا يَقوَّ عَلَى النَظَرِ بِوُجُوهِهِم، وَنَادِمَاً عَلَى فَعلَتِهِ غَيرِ مَحسُوبَةِ العَوَاقِبِ، تَرَكَت ظِلالَهَا بِقُلُوبِ الكَثِيرِين، وَانطِبَاعٍ سَيءٍ مُلتَصِقٍ بِشَرَفِ فَتَاةٍ بَرِيئَةٍ إِلَى الأَبَد.

الأَسْرَارُ

لا يُمكِنُ التَنَبُّؤَ بِمَا يَحمِلُهُ الغَدُ بَينَ طَيَّاتِهِ مِنْ مُفَاجَآتٍ بِحَيَاةٍ مَلِيئَةٍ بِالغَرَائِبِ وَكَثِيرٍ مِنَ المُفَارَقَاتِ، فَلَرُبَّمَا تَكُونُ أَحدَاثٌ سَعِيدَةٌ وَتُسِرُّ القَلبَ، وَرُبَّمَا تُدمِيهِ أَلَماً وَحُزناً.

وَمَا تَلَّقَاهُ قَلبُ «يحيى» مِنْ صَدمَةٍ وَحُزنٍ لَمْ يَخطُر عَلَى بَالِ أَحَد، فَقَد وَضَعَتهُ الحَيَاةُ أَمَامَ اختِبَارٍ حَقِيقِيٍ بَينَ المَوتِ أو الجُنُونِ، وَأَلقَت بِهِ بِهُوَّةٍ سَحِيقَةٍ لَيسَ لَهَا قَرَار.

«يحيى» ذَلِكَ الرَجُلُ الطَيِّبُ الذِي وَصَفَهُ أصدِقَائُهُ بِالصَادِقِ وَالحَنُونِ وَالكَرِيمِ لِمَا يَمتَازُ بِهِ مِنْ مَحَاسِنِ الخُلُقِ الجَمِيلَةِ. كَانَ يَعمَلُ سَائِقاً لأُوتُوبِيسٍ صَغِيرٍ لِنَقلِ الرُّكَّابِ لِتَوفِيرِ لُقمَةَ العَيشِ لِعَائِلَتِهِ السَعِيدَةِ.

الطَرِيقُ الذِي يَعمَلُ فِيهِ تُحِيطُهُ أرَاضٍ زِرَاعِيَةٍ وَقُرىً كَثِيرَةٍ عَلَى جَانِبَي الطَرِيقِ.

فِي أَحَدِ الأَيَامِ كَانَ «يحيى» يُقِلُّ مَجمُوعَةٍ مِنَ الرُّكَّابِ وَعِندَمَا أَوشَكَ عَلَى الوُصُولِ وَنَزَلَ الكَثِيرُ مِنَ الرُّكَّابِ فِي الطَرِيقِ وَلَمْ يَبْقَ مَعهُ إلا ثَلاثَةُ رُكَّابٍ سَمِعُوا صَوتَ طِفلٍ صَغِيرٍ بِمُؤَخِرَةِ الأُوتُوبِيسِ وَكَانَ طِفلاً حَدِيثَ الوِلادَةِ، يَتَلَّوَى صَارِخَاً فَذُهِلَ الجَمِيعُ لِبَقَاءِ الطِفلُ لِوَحدِهِ فَتَوَقَف «يحيى» سَائِلاً المُتَوَاجِدِينَ، قَائِلاً:

.ألا تَعرِّفُوا مَنْ كَانَ يَشغِلُ المَقعَدَ الأَخِيرَ؟

فَقَالَ أَحَدُهُم:

.أَنَا أَعرِفُ أَنَّهَا امرَأَةٌ مَعَ ابنَتِهَا، وَأَعرِفُ كَذَلِكَ أَينَ نَزَلَا.

فَرِحَ «يحيى» وَشَكَرَ الرَجُلَ ثُمَّ استَأذَنَهُم بِالعَودَةِ لِلبَحثِ عَنْ النِسَاءِ فِي تِلكَ القَريَةِ التِي وَصَفَهَا الرَجُلُ، فَوَافَقَ الجَمِيعُ لِحَلِّ هَذِهِ المُشكِلَةِ.

عَادَ الأُوتُوبِيس إِلَى المَكَانِ الذِي نَزَلَت فِيهِ المَرأَتَان فَتَرَجَّلَ السَائِقُ وَمَنْ مَعَهُ حَتَى وَصَلا إِلَى أَحَدِ البُيُوتِ القَرِيبَةِ سَائِلِين عَنْ وُجهَةِ تِلكَ المَرأَتَينِ فَأَخبَرَهُمَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ أَنَّهَا زَوجَةُ أَحَدَ الفَلاحِينِ وَابنَتَهُ وَأَدَلَّهُم عَلَى ذَلِكَ المَنزِلِ.

أَقبَلَ «يحيى» وَهُوَ يَحمِلُ الطِفلَ بَينَ يَدَيهِ إِلَى ذَلِكَ البَيتِ فَخَرَجَ إِلَيهِ رَجُلٌ كَبِيرٌ وَقُورُ الشَكلِ فَرَحَّبَ بِهِمُ وَدَعَاهُم لِلدُخُولِ، وَلَكِن «يحيى» شَكَرَهُ بِأَدَبٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ:

.يَا عَمُّ وَجَدنَا هَذَا الطِفلَ بِمَكَانِ زَوجَتِكَ وَابنَتِكَ فِي الأُوتُوبِيسِ، فَرُبَّمَا أَفقَدَهُمُ التَعَبُ، وَنَسِيَاهُ فِي الأُوتُوبِيسِ.

ارتَسَمَت مَلامِحُ الحَيرَةِ وَالتَعَجُّبِ بِوَجهِ ذَلِكَ الرَجُلِ المِسكِينِ، فَتَرَكَ الجَمِيعُ وَدَخَلَ إِلَى المَنزِلِ، وَبَعدِ لَحظَاتٍ سَمِعُوا كَلاماً مُتَشَنِّجاً وَصَوتاً عَالٍ، تَحَوَّلَ بَعدَهَا إِلَى صَرخَاتٍ وَشِجَارٍ، وَأَخِيراً خَرَجَ الرَجُلُ مُتعَبَاً، يَحمِلُ بِيَدَيهِ عَصَاً غَلِيظَةً، وَهُوَ يَتَأَفَّفُ أَلَماً وَقَهراً، وَالكُلُّ يَجهَلُ مَا الحِكَايَةُ، حَتَى خَرَجَت خَلفَهُ ابنَتَهُ، وَالدَمُّ يَسِيلُ مِنْ أَنفِهَا وَأَسنَانِهَا، وَهِيَ بَاكِيَةُ صَارِخَةٌ، ثُمَّ أَشَارَت إِلَى «يحيى» بِإِصبَعِهَا، قَائِلَةً:

ـ هَذَا يَا أَبِي هُوَ الرَجُلُ الذِي غَرَّرَ بِي وَخَدَعَنِي، وَهُوَ أَبٌ لِطِفلِ الخَطِينَةِ هَذَا.

فَمَا أَتَمَّت كَلامَهَا حَتَى عَجَّ المَكَانُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَهَالِي القَرِيَةِ،

وَالبَعضُ مِنْهُم يَحمِلُ السِلاح، أَحَاطَت الجُمُوعُ بِـ«يحيى»، وُكُلٌّ مِنْهُمُ يَتَفَنَّنُ بِضَربِهِ حَتَى قَيَدُوهُ وَأَوسَعُوهُ ضَرباً حَتَى أُغمِيَ عَلَيهِ، أَمَّا رِفَاقُهُ الرُّكَّابُ فَقَد تَمَكَّنُوا مِنَ الهَرَبِ، تَارِكِينَ «يحيى» تَحتَ رَحمَةِ أُنَاسٍ ثَارَ غَضَبُهُمُ وَفَقَدُوا بَصِيرَتَهُم لِشَرَفٍ مَهدُورٍ، أُهرِقَ تَحتَ قَدَمَيهِ. وَمَسأَلَةُ الشَرَفِ هِيَ خَطٌّ أَحمَرٌ لا يَتَهَاوَن بِهِ كُلٌّ مِنْهُم مَهمَا كَانَ طَيِّبَ القَلبِ وَلا يَخضَعُ لأَيَّةِ مُسَاوَمَةٍ.

تَدَخَّلَ العُقَلاءُ مِنْ أَكَابِرِ أَهلِ القَريَةِ، وَرَأُوا أَنَّهُ مِنَ الحِكمَةِ أَنْ يُسَلِّمُوا «يحيى» إِلَى يَدِّ العَدَالَةِ خِشيَةَ مَوتِهِ بَينَ أَيدِيهِمْ، الأَمرَ الذِي قَدْ يُثِيرُ حَفِيظَةَ أَهلِهِ وَعَشِيرَتِهِ لِلأَخذِ بِثَأرِهِ وَالمُطَالَبَةِ بِدَمِّهِ.

اقتَنَعَ الجَمِيعُ بِهَذِهِ المَشُورَةِ فَحَمَلُوه كَالشَاةِ، وَرِجلاهُ تَخُطَّانِ فِي الأَرضِ، وَالدِمَاءُ صَبَغَت مَلابِسَهُ.

سَلَّمُوهُ لِنُقطَةِ الشُرطَةِ، وَلَمَّا عَادَ لَهُ وَعيَهُ أَرَادَ الدِفَاعَ عَنْ نَفسِهِ بِأَيَّةِ كَلِمَةٍ، فَكُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَنطِقْ يَصفَعُهُ أَحَدُهُم بِقُوَّةٍ وَيُخرِسُهُ، فَاكتَفَى بِالصَمتِ وَالنَظَرِ بِعُيُونِ جَلادِيهِ.

سَجَلَ المُحَقِّقُ إِفَادَتَهُ التِي أَنكَرَ فِيهَا «يحيى» كُلَّ مَا نُسِبَ إِلَيهِ، مُعتَبِراً أَنَّهَا دَعوَى بَاطِلَةٍ مِنَ الفَتَاةِ وَانتِقَاماً مِنهُ لإِعَادَةِ الطِفلَ لَهَا، وَهِي لَمْ تُصَدِّقْ أَنَّهَا تَخَلَّصَت مِنهُ.

أُلقِيَ بِهِ فِي زِنزَانَةِ نُقطَةِ الشُرطَةِ إِلَى اليَومِ التَالِي، الذِي أَحَالُوهُ فِيهِ إِلَى سَرَايَ النِيَابَةِ وِمِنهَا أُخِذَت أَقوَالُهُ، فَأَنكَرَ فِي مَحضَرِهَا الاتِهَامَ المَنسُوبَ إِلَيهِ، كَمَا قَالَ فِي نُقطَةِ الشُرطَةِ.

أَحَالَتهُ النِيَابَةُ إِلَى الطَبِيبِ المُختَصِ بِالطِبِّ الشَرعِيِّ؛ لإِجرَاءِ الفُحُوصَاتِ اللازِمَةِ، وَلِتَوثِيقِ المَعلُومَاتِ المُختَبَرِيَةِ لإِثبَاتِ الجُرمَ المَنسُوبَ إِلَيهِ، وَمِنْ ضِمنِ الفُحُوصَاتِ أُرسِلَ لِلمُختَبَرِ لإِجرَاءِ فَحصَ

السَائِلِ المَنَوِّي الـDNA.

أُكمِلَت كُلَّ الإجرَاءَاتِ، وَأُعِيدَت التَقَارِيرُ الطِبِيَّةُ لِسَرَايَ النِيَابَةِ، حَتَى عَلِمَ المُحَقِّقُ أَنَّ تَقرِيرَ الطِبِّ الشَرعِيِّ يُؤَكِّدُ أَنَّ «يحيى» رَجُلٌ عَقِيم، وَهُنَا أَشرَقَت بِوَجهِ المُحَقِّقِ ابتِسَامَةٌ لِتَعَاطُفِهِ مَعَ «يحيى» مِنْ بَرَاءَتِهِ مِنَ التُهمَةِ المُلَفَّقَةِ لَهُ فَهَنَأَّهُ بِحَرَارَةٍ، وَلَكِنَ «يحيى» صَدَمَتهُ الكَلِمَات، قَائِلاً:

ـ سَيِّدِي، مَاذَا تَقُول؟! أَنَا وَالِدٌ لأَربَعَةِ أَطفَالٍ! فَلَرُبَّمَا حَصَلَ التِبَاسٌ أو اشتِبَاهٌ بِالفَحصِ المُختَبَرِي.

زَرَعَت أَقوَالُ «يحيى» الأَخِيرَةِ بُذُورَ الشَكِّ فِي قَلبِ المُحَقِّقِ، حَيثُ قَرَّرَ إعَادَةَ التَحلِيلِ فِي اليَومِ التَالِي.

جَاءَ تَقرِيرُ الطِبِّ الشَرعِيِّ مُطَابِقَاً لِتَقرِيرِ الأَمسِ فَمَا «يحيى» إلا رَجُلٌ عَقِيم.

قَرَّرَ رَئِيسُ النِيَابَةِ إطلاقَ سَرَاحِ «يحيى» مِنْ سَرَايَ النِيَابَةِ؛ لِبَرَاءَتِهِ مِنَ التُهَمِ المَنسُوبَةِ إلَيهِ، استِنَادَاً لِكُلِّ الأَدِلَّةِ وَالبَرَاهِينِ وَالتَقَارِيرِ الطِبِيَّةِ، وَأَوصَت عَلَى التَكَتُّمِ بِسِرِّيَةِ المَعلُومَاتِ؛ حِفَاظَاً عَلَى سُمعَتِهِ أَمَامِ النَاسِ.

خَرَجَ «يحيى» مَهمُومَاً قَلِقَاً، تَتَمَلَكهُ كَآبَةٌ مُدمِرَة، وَخُطوَاتٌ حَائِرَةٌ خَائِرَةٌ لِمُستَقبَلٍ ضَائِعٍ مَعَ زَوجَةٍ خَائِنَةٍ.

رَفَضَ دَعوَاتِ أَقَارِبِهِ لِلقَصَاصِ مِنْ تِلكَ القَرِيَةِ لِهَذَا الفِعلِ الشَنِيعِ وَالتُهمَةِ البَاطِلَةِ وَلَكِنَهُ أَخرَسَهُم جَمِيعَاً، وَالغَضَبُ يَطغَى عَلَى كَلِمَاتِهِ مُدَّعِيَاً أَنَّ القَضِيَةَ تَخُصُّهُ وَحدَهُ، وَهُوَ لا يَرغَبْ فِي ايذَاءِ أَي أَحَدٍ.

بَقِيَ أَربَعَةَ أَيَامٍ فِي بَيتِ وَالِدِهِ لا يَرغَبْ فِي رُؤيَةِ زَوجَتِهِ وَأَطفَالِهِ،

مُنزَوِيـاً يَبكِي أحيَانَـاً بِوَحدَتِـهِ، وَمُفَكِّـراً بِمَـا يَجُـولُ بِأفكَـارِهِ مِـنَ الاحتِمَالاتِ وَالوَسَاوِسِ.

فِي نِهَايَةِ اليَومِ الرَابِعِ قَرَّرَ الذَهَابَ لِزَوجَتِهِ بَعدَ أَنْ تَأَكَّد أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِـنْ اتِخَـاذِ قَرَارَاتِـهِ بِحِكمَـةٍ وَمَوضُـوعِيَةٍ، وَبَعِيـداً عَـنْ التَشَـنُّجِ وَالغَضَبِ, قَالَ لِزَوجَتِهِ:

ـ أَولاً يَجِـب أَنْ تُخبِرِينِي مَـنْ هُـوَ وَالِـدَهُم الحَقِيقِيُ وَلا دَاعِي أَنْ تُنكِرِي حَقِيقَـةً وَاقِعَـةً، وَقَـد أُثبِتَت عِلمِيَاً أَنَّنِي عَقِيمٌ، فَـالأَحرَى بِكِ الاعتِرَاف.

بَعدَ إنكَارٍ، وَبُكَاءٍ، وَتَوَسُلاتٍ، وَتَقبِيلِ الأَيَادِي وَالأَقدَامِ، اعتَرَفَت لِزَوجِهَا عَـنْ ذَلِـكَ الشَخصُ الـذِي أَدمَى قَلبَـهُ بِمَعرِفَتِـهِ؛ لأَنَّـهُ أَخُـوهُ الذِي مَاتَ مُنذُ فَترَةٍ بَعِيدَةٍ.

عِندَمَا عَرِّفَ مَنْ وَطِئَ مَضجَعَهُ، وَدَنَسَ شَـرَفَهُ وَاستَبَاحَ عِرضَهُ وَأَنجَـبَ هَـذِهِ الحِزمَـةَ مِـنَ الأَطفَـالِ مِـنْ أَقـرَبِ النَـاسِ إلَيـهِ أَجهَـشَ بِالبُكَـاءِ أَمَـامِ زَوجَتِـهِ مُعلِنَـاً هَزِيمَتَـهُ، وَهُـوَ يُقَلِّـبُ فُصُـولَ فَجِيعَتَـهُ كَالثَكَالَى.

بَعـدُ لَحظَـاتٍ عَصِـيبَةٍ اتَكَـأَ عَلَى الحَـائِطِ لِيَلـتَقِط أَنفَاسَـهُ، ثُـمَّ دَعَاهَـا أَنْ تُرَافِقُـهُ إلَى المَحكَمَـةِ وَتَطلُـب الطَلَاقَ بِرَغبَتِهَا، وَأَنْ تَتَنَـازَل عَـنْ كَامِـلِ حُقُوقِهَـا مُقَابِـل أَنْ يَتَنَـازَل هُـوَ عَـنْ الأَطفَـالِ وَيَترُك لَهُـم اسمَهُ قُربَانَاً لِوَجهِ اللهِ؛ حِرصَاً مِنهُ عَلَيهِم مِنَ التَشَرُّدِ وَالانكِسَارِ وَمَا هُم إلا مَسَاكِينَ أَبرِيَاءِ وَحَذَّرَهَا فِي حَالَةِ الرَفضِ و التَحَدُّثِ لأَي أَحَدٍ بِبُنُودِ الاتِفَاقِ مَعهَا سَيُعَرِّضُهَا لِلمَوتِ وَتَشَرُّدِ الأَطفَالِ.

بَعـدُ أَيَـامٍ قَلِيلَـةٍ حَسَـمَت المَحكَمَـةُ مَوضُـوعَ الطَـلَاقِ، وَهَكَـذَا تَقَطَّعَـت رَوَابِـطٌ كَانَـت فِي الأَمسِ القَرِيـبِ حَمِيمَـة، وَسَـالَت الـدُمُوعُ

بِحَـرَارَةٍ، وَافتَرَقَ الأَحِبَّـةُ يَحمِـلُ كُلٌّ مِـنهُم جِرَاحَـاً عَمِيقَـةٍ، لا أَعتَقِـد بِشِـفَائِهَا مَهمَا طَالَ بِهَا الزَمَن، وَذِكرَيَاتٌ بَائِسَـةٌ قَدْ التَصَقَت بِذَاكِرَةِ «يحيى» الـذِي رَحَلَ بَعِيـداً إِلَى مَدِينَـةٍ غَرِيبَـةٍ لِيَـنسَ كُلَّ شَيءٍ وَرُبَّمَـا لا يَنسَى.

obeikandl.com

مُفَاجَأَةُ صَدِيْقْ

وَقَفَ «حسين» أَمَامَ المِرآةِ، يَتَحَسَّسَ آثَارَ عَبَثِ الأَيَامِ، وَتَجَاعِيدُ رِحلَةِ العُمرِ فِي وَجهِهِ وَذُبُولِ اشرَاقَتُهُ المَشهُودَةِ. لَقَد استَبَاحَ الكِبَرُ مَلامِحَهُ الوَسِيمَةِ، وَأَحَالَ شَعرَهُ إِلَى هُلامَةٍ بَيضَاءٍ كَالقُطنِ. نَفَثَ زَفَرَاتِ الأَلَمِ المَصحُوبَةِ بِالحُزنِ لِمَا فَقَدَهُ مِنَ العُمرِ. جَلَسَ مُتَهَالِكاً عَلَى مَقعَدِ بِجَانِبِ سَرِيرِهِ، وَالأَفكَارُ تَجُولُ بِذَاكِرَتِهِ، فَأَي نِهَايَةٍ مَأسَاوِيَةٍ تَتَرَبَصُ بِهِ، بَعدِ رِحلَةٍ مِنَ العَذَابِ وَالمُعَانَاةِ، وَأَحلامٍ مَفقُودَةٍ كَانَت يَومَاً تَحمِلُهُ عَلَى أَكُفِّهَا الوَدُودَةِ بِزَمَنِ الشَبِيبَةِ الضَائِعَة.

ظَلَّ يُعِيدُ حِسَابَاتِ الزَمَنِ بِتَرَوٍّ؛ بَحثَاً عَنْ نِقَاطٍ مُضِيئَةٍ بِتَارِيخٍ حَافِلٍ بِالمَآسِي، رُبَّمَا تُنعِشُ نَفسَهُ المُحَطَّمَةِ، وَتُصلِحُ رَمِيمَ آمَالِهِ، لِمَا تَبَقَّى لَهُ مِنَ العُمرِ.

تَجتَاحُهُ أَفكَارٌ عَقِيمَةٌ تَدعُوهُ لِلانطِوَاءِ، وَالعُزلَةِ، وَمُجَافَاةِ وَاقِعٍ نَاصَبَهُ العَدَاء؛ فَلا يَنبَغِ زَجَّ القَلبَ بِمَتَاهَاتِ مَسَالِكٍ مَجهُولَةٍ مِنْ عُمرٍ وَلَّى، مَلِئٌ بِالدُمُوعِ وَالقَهرِ، وَحَاضِرٍ بَائِسٍ، وَمُستَقبَلٍ لا يَقِلُّ سَوداوِيَةً عَنْهُم.

أَشعَلَ سِيجَارَةً لِيَنْسَّ مَرَارَةَ زَوبَعَةِ الأَفكَارِ، وَيَختَفِّ تَحتَ لُحُفِ الدُّخَّانِ الكَثِيفَةِ، التِي تُزِيدُ مِنْ مُضَايَقَاتِهِ النَفسِيَةِ، حَيثُ يُطَارِدُهُ شَبَحُ الذِكرَيَاتِ، التِي أَصبَحَت تُخنِقُهُ حَدَّ الجُنُونِ، كُلَّمَا يَختَلِي مَعَ نَفسِهِ.

كَانَ يَتَأَلَّمُ كَثِيرَاً لِذِكرَيَاتِ زَوجَتِهِ الفَاتِنَةِ، التِي مَلأت حَيَاتَهُ نَشوَةً

وَسِحراً، وَذَابَ بِحُبِّهَا شَوقاً، وَوَجَدَ نَفسَهُ بِقِصَةِ حُبٍّ رَائِعَةٍ، طَالَ أَمَدُهَا لِسِنِينٍ طَوِيلَةٍ، وَبَذَلَ قُصَارَى جُهدَهُ لإقنَاعِ ذَوِيهَا، حَتَى حَدَثَت المُعجِزَةُ بِالقَبُولِ وَتَمَّ الزَوَاجُ، وَتَحَقَّقَت تِلكَ الأَحلامُ الوَردِيَةُ، وَأَثمَرَت عَنْ زَوَاجٍ سَعِيدٍ، وَلَكِن لِلأَسَفِ لَمْ تُمهِلُهُ الأَقدَارُ سِوَى سَنَةً وَاحِدَةً، حَتَى مَزَقَتهَا يَدُّ الرَدَى، بَعدَ أَنْ فَقَدَت حَيَاتَهَا بِسَبَبِ وِلادَةٍ مُتَعَسِرَةٍ مَعَ جَنِينِهَا، الذِي لَمْ يَرمِق النُورَ، وَلَمْ يَتَمَكَّن حِينَهَا مِنْ إيصَالِهَا إلَى المُستَشفَى، وَإنقَاذِ حَيَاتَهَا فِي الوَقتِ المُنَاسِبِ. دَمَرَتهُ هَذِهِ الصَدمَةُ، وَانزَوَى رَفِيقاً لِلحُزنِ وَالشَقَاءِ، وَأَغلَقَ مَنَافِذَ الأَمَلِ لِمُستَقبَلٍ لا يُرتَجَى مِنهُ أَي فَرَحٍ، وَرُبَّمَا يَحمِلُ المَزِيدَ مِنَ المُفَاجَآة.

تَوَارَى عَنْ الأَحدَاثِ حِيناً مِنَ الزَمَنِ؛ مُنشَغِلاً بِالعَمَلِ، يُصَارِعُ شَبَحَ الوِحدَةِ فِي مَنزِلٍ تَئِزُّ فِيهِ أَصوَاتُ الوَحشَةِ وَصَدَى الذِكرَيَاتِ. رَفَضَ الكَثِيرِ مِنْ عُرُوضِ أَصدِقَائِهِ أَنْ يُمَزِّقَ أكفَانَ انطِوَائِهِ وَعُزلَتِهِ، وَالانفِتَاحَ عَلَى النَاسِ، وَالتَفكِيرَ جِدِّيَاً بِالزَوَاجِ مَرَّةً أُخرَى، إلَى أَنْ أَثمَرَت يَوماً تِلكَ الجُهُودُ بِإقنَاعِهِ بِالزَوَاجِ، وَفِعلاً ذَهَبَ مَعَ أُولَئِكَ الأَصدِقَاءِ، بَعدَ أَنْ أَدرَكَ أَنَّ خَرِيفَ الشَيخُوخَةِ يَزحَفُ مُتَسَارِعاً لِيَلتَهِم رَبِيعَ العُمرِ، وَغَرزَ أَوتَادَهُ المُستَفزَةِ عَلَى أَبوَابِهِ. صُدِمَ الجَمِيعُ بِرَفضِ تِلكَ المَرأَةِ لِفِكرَةِ الزَوَاجِ بِهِ، الأَمرَ الذِي أَجهَزَ عَلَى آخِرِ آمَالِهِ، فَانطَوَى مُجَدَّداً؛ يَنتَظِرُ الخَلاصَ بِفَارِغِ الصَبرِ.

بَعدَ هَذِهِ الفِسحَةَ مِنَ الذِكرَيَاتِ المُؤلِمَةِ، اضطَجَعَ عَلَى سَرِيرِهِ؛ لِيَلتَقِط أَنفَاسَهُ المُتَسَارِعَةِ، وَلِيَنعَم بِغَفوَةٍ رُبَّمَا تُنسِيهِ بَعضَاً مِنْ هُمُومِهِ، حَتَى سَمِعَ رَنِينَ جَرَسِ البَابِ، حَيثُ جَاءَ إلَيهِ صَدِيقَهُ الحَنُونُ «ناصر»؛ لِزِيَارَتِهِ، وَكَانَت كَالعَادَةِ تَلُوكُ أَفوَاهَهُمُ نَفسَ

الأَحَادِيثِ، التِي اعتَادَاهَا عِندَ كُلِّ لِقَاءٍ، عَلَى أَنغَامِ رَنِينِ مَلاعِقِ وَأَقدَاحِ الشَايِ، وَرَشفَاتِهِ السَاخِنَةِ، وَتُعَادُ مُحَاوَلاتُ «ناصر»، وَإِلحَاحُهُ عَلَى إقنَاعِ «حسين» بِفِكرَةِ الزَوَاجِ، وَتَنتَهِي المُحَاوَلاتُ بِالفَشَلِ كَسَابِقَاتِهَا.

قَبلُ أَنْ يُغَادِرَ «ناصر» طَلَبَ مِنْ صَدِيقِهِ بِمُرَافَقَتِهِ بِفُسحَةٍ مَعَهُ؛ لِلتَرفِيهِ عَنهُ، وَبِمُزحَةٍ جَمِيلَةٍ تَوَسَلَ إلَيهِ أَنْ يَتَأَنَّقَ حَتَى ابتَسَمَ «حسين» لِمُزَاحِ صَدِيقِهِ الحَنُونِ.

ارتَدَى بَدلَةً جَمِيلَةً، وَهَذَّبَ لِحيَتَهُ، وَرَضَخَ أَخِيراً لِرَغبَةِ صَدِيقِهِ بِصَبغِ شَعرِهِ الأَشيَبِ، وَهُوَ لا يَعلَم مَا يَجُولُ بِخَفَايَا أَفكَارِ صَدِيقِهِ، وَأَخِيراً وَقَفَ أَمَامَ المِرآةِ لِيَرَى صُورَةَ رَجُلٍ وَسِيمٍ، تَرَكَت لَهُ الحَيَاةُ بَقَايَا ابتِسَامَةٍ سَاحِرَةٍ، وَطَلَّةٍ بَهِيةٍ.

خَرَجَ الرَجُلان يَتَمَشَّيَانِ، حَتَى جَلَسَا بِإحدَى المَقَاهِي لِبَعضِ الوَقتِ, كَانَت رَغبَةُ «ناصر» إنقَاذَ صَدِيقَهُ المُحَاصَرِ بِالوِحدَةِ؛ لِيَزِجَّ بِهِ إلَى أَحضَانِ المُجتَمَعِ، وَيُخرِجُهُ مِنْ مُحِيطِهِ المُنعَزِل.

صَرَفَا وَقتاً جَمِيلاً، انعَكَسَت سَعَادَتَهُ عَلَى مُحَيَّا «حسين»، وَبَعد أَنْ غَادَرَا المَقهَى، اقتَرَحَ عَلَيهِ «ناصر» أَنْ يُرَافِقَهُ لِزِيَارَةِ صَدِيقٍ، قَائِلاً:

ـ اسمَع يَا صَدِيقِي، إنَّ الرَجُلَ الذِي نُوَدُّ زِيَارَتَهُ حَدَّثَنِي يَوماً عَنِ ابنَتِهِ المِسكِينَةِ، التِي رَحَلَ زَوجُهَا بِحَادِثٍ مُؤسِفٍ، وَتَرَكَ لَهَا طِفلَينِ جَمِيلَينِ، وَأَتَمَنَّى لَوْ وَافَقتَ عَلَى رَغبَتِي بِطَلَبِ يَدِّهَا مِنْ وَالِدِهَا.

وَاجَهَهُ «حسين» بِرَفضٍ قَاطِعٍ، رَافِضَاً حَتَى زِيَارَةَ ذَلِكَ الصَدِيقِ، وَعَادَ إلَى مَنزِلِهِ نَادِماً عَلَى إضَاعَةِ الوَقتَ بِكَلامٍ تَجَاوَزَتهُ رِحلَةُ الزَمَنِ. عَادَ إلَى قَبّوِ وِحدَتِهِ، وَهُوَ يَلُومُ نَفسَهُ عَلَى مُرَافَقَةِ ذَلِكَ الصَدِيقِ،

الذِي يُزعِجُهُ بِمُوَاجَهَاتٍ رُبَّمَا تَحمِلُ المَوتَ بِفَشَلِهَا كَسَابِقَاتِهَا. لَقَدْ قَرَّرَ إلغَاءَ فِكرَةِ الزَوَاجِ نِهَائِيَاً، بَعدَ أَنْ رَفَضَتهُ تِلكَ المَرأَةُ؛ لِيَعِيشَ بِسَكِينَةٍ وَهُدُوءٍ، فِي آخِرِ أَيَامِهِ كَمَا يَعتَقِد.

بَعدَ أَربَعَةِ أَيَامٍ جَاءَهُ صَدِيقُهُ «ناصر»، وَكَرَّرَ طَلَبَهُ لِمُرَافَقَتِهِ؛ لِرُؤيَةِ تِلكَ المَرأَةِ، وَلَكِنَهُ صَدَمَهُ بِرَفضٍ لا يَلِينُ أَبَدَاً، أَرَادَ «ناصر» تَهدِئَةَ الوَضعَ، وَبَعدَ لَحظَاتِ صَمتٍ، دَعَاهُ إِلَى حَفلٍ عَائِلِيّ؛ بِمُنَاسَبَةِ سُبُوعِ حَفِيدٍ لَهُ.

وَافَقَ «حسين» بِمُشَارَكَةِ صَدِيقِهِ أَفرَاحِهِ، وَتَقدِيمِ التَهَانِي لِحَفِيدِهِ؛ شَرطَ ألا يُحَدِّثَهُ عَنْ فِكرَةِ الزَوَاجِ مُجَدَّدَاً.

جَلَسَ بَينَ الحُشُودِ الفَرِحَةِ فِي صَالَةِ الضُيُوفِ، التِي تَعِجُّ بِالكَثِيرِ مِنَ المُهَنئِينِ مِنَ الرِجَالِ وَالنِسَاءِ وَالأَطفَالِ، حَيثُ رَحَبَّ بِهِ الجَمِيعُ بِكَلِمَاتٍ وَدُودَةٍ، وَتَذَوَّقَ مُتعَةَ التَجَمُّعِ العَائِلِي، الذِي حُرِمَ مِنهُ طِيلَةَ العُمرِ.

كَانَت عَينَاهُ تَجُولانِ بِوُجُوهِ الجَمِيعِ، حَتَى استَقَرَّت عَلَى وَجهِ فَاتِنَةٍ كَأَنَّهُ البَدرُ، فَخَجَلَ مِنْ نَظرَاتِهَا، وَأَطرَقَ رَأسَهُ مُتَحَاشِيَاً إحرَاجِهَا، خُصُوصَاً أَنَّهُ وَجهٌ غَرِيبٌ، لَمْ يَرَهُ سَابِقَاً، وَهُوَ يَعرِفُ أَفرَادَ عَائِلَةِ صَدِيقِهِ وَأَقَارِبَهُم، إذَاً مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الجَمِيلَةِ ؟! فَلَرُبَّمَا مِنَ الجِيرَانِ المَدعُوّين.

بَعدَ لَحظَاتٍ عَاوَدَ النَظَرَ إِلَيهَا؛ مُستَغِلاً انشِغَالَ الجَمِيعِ بِالغِنَاءِ وَالضَحِك. التَقَت نَظرَاتُهُمَا، فَأَحَسَّ بِاضطِرَابٍ وَحَيرَةٍ، وَلَكِنَهُ يَتَلَّذَذُ بِالتَمَتُّعِ مِنْ جَمَالِ وَمَحَاسِنِ وَجهِهَا.

ابتَسَمَ لَهَا ابتِسَامَةً هَادِئَةً مُتَرَدِدَةً خَائِفَةً، وَكَانَ جَوَابُهَا بِابتِسَامَةٍ رَقِيقَةٍ، أَشعَلَت فَتِيلَ نَارٍ هَائِجَةٍ بِخَفَايَاهُ، وَقَلَبَت مَوَازِينَ كَيَاسَتِهِ،

وَاستَفزَت كِبرِيَاءَهُ، وَأَعَادَتهُ إِلَى عَهدِ الشَبِيبَةِ الثَائِرَةِ بِكُلِّ انفِعَالاتِهَا، فَـأَحَسَّ بِنَشـوَةٍ غَرِيبَـةٍ، وَرَغبَّـةٍ مُلِحَـةٍ لِمُغَازَلَـةِ هَـذِهِ الجَمِيلَـةِ، لَـولا اسـتِدرَاكِهِ مِـنْ حَرَاجَـةِ الوَضـعِ، وَتَقـدِيراً لِحُرمَـةِ مَنزِلِ صَـدِيقِهِ، فَيَقتَضِي أَنْ يَلتَزِم بِحُدُودِ كَيَاسَتِهِ، فَعَادَ مُجَدَّداً إِلَى وَضعِهِ السَابِقِ، المُتَشَـرِّدِ وَالمُتَمَـرِّدِ، وَلاذَّ بِصَمتٍ، مُطرِقَـاً رَأسَـهُ، خَائِفَـاً مِـنَ التَقَـرُّبِ إِلَيهَا، فَلَرُبَّمَا يَرفُضُ مُجَدَّداً.

نَهَضَ يُرِيدُ الاستِئذَانَ لِلانصِرَافِ، فَأَوقَفَهُ صَدِيقُهُ هَامِسَاً بِأُذُنِهِ، قَائِلاً:

.ألا تَرغَب بِرُؤيَةِ السَّيّدَةِ التِي حَدَّثتُكَ عَنهَا؟

فَأَجَابَهُ «حسين»، قَائِلاً:

.يَا صَدِيقِي ألا تَمَلَّ مِنْ تَكرَارِ هَذِهِ الحِكَايَةِ؟ أَنَسِيتَ أَنَّنَا اتَفَقنَا عَلَى عَدَمِ ذِكرِهَا مُجَدَّداً؟

فَأَجَابَهُ «ناصر»، قَائِلاً:

.لا يَا صَدِيقِي، لَمْ أَنسَ، وَلَكِن أَتَمَنَّى عَلَيكَ إِلقَاءَ نَظرَةً وَاحِدَةً فَقَط. وَبَعدَهَا أَترُكُ الخَيَارُ لَكَ بِالانصِرَاف.

فَأَجَابَهُ «حسين»، قَائِلاً:

.مَنْ هِيَ؟!

قَالَ «ناصر»:

.تِلكَ السَّيّدَة.

فَلَمَّـا نَظَـرَ «حسـين» إِلَى الاتِجَـاهِ الـذِي حَـدَدَهُ «ناصـر»، حَتَى التَقَت عَينَاهُ بِوَجهِ تِلكَ الفَاتِنَةِ، التِي أَلهَبَت مَشَـاعِرَهُ مُنذُ لَحظَاتٍ فَأَحَسَّ بِالإِرتِبَاكِ.

لَحظَاتٍ سَادَهَا الصَمتُ، فَجَلَسَ وَهُوَ يَفرُكُ صَدغَيهِ مِنْ فَرطِ

حَيرَتِهِ, فَابتَسَمَ «ناصر» قَائِلاً:

.يَبدُو أَنَّكَ يَا صَدِيقِي استَسلَمتَ لِسِهَامِ عَينَيهَا مِنْ أَوَّلِ لِقَاءٍ.

فَضَحِكَ الصَدِيقَان, ثُمَّ قَالَ «ناصر»:

ـ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّكُمَا تَتَحَدَّثَانِ لِبَعضِكُمَا عَلَى إنفِرَادٍ، وَلا تَخشَّ يَا صَدِيقِي فَهِي تَعرِفُ أَدَقَّ تَفَاصِيلِ حَيَاتِكَ، كَمَا حَدَّثتُهَا عَنكَ.

جَلَسَ الاثنَان بِزَاوِيَةٍ مِنَ الصَالَةِ، وَسَطَ انشِغَالِ الجَمِيعِ، تَحَدَّثَ «حسين» إلَيهَا، قَائِلاً:

.يُشَرِّفُنِي التَعَرُّفُ بِكِ سَيّدَتِي، وَأُوَدُّ أَنْ أَقُولَ لَكِ أَنَّ فِكرَةَ الزَوَاجِ كَانَتْ مَلغِيَةٌ مِنْ حِسَابَاتِي نِهَائِيَاً، وَعِندَمَا رَأَيتُكِ تَوَرَدَت أَحلامِي، وَأَينَعَت آمَالِي، حَتَى أَيقَنتُ أَنَّنِي كُنتُ مُخطِئَاً، فَجَمَالُكِ أَثَارَ مَشَاعِرِي الرَاكِدَةِ بِدَهَالِيزِ الهَزَائِمِ المُتَكَرِّرَةِ.

ابتَسَمَت لَهُ، وَأَجَابَتهُ بِكَلِمَاتِ شُكرٍ عَلَى هَذَا الاطرَاءِ الجَمِيلِ, ثُمَّ قَالَ:

.أَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَ نِعمَ الزَوجِ لَكِ، إنْ وَافَقتِ بِي.

قَالَت لَهُ:

ـ سَيّدِي أَنَا أَعرِفُ ظُرُوفَ مِحنَتَكَ، وَتَعَاطَفتُ مَعهَا، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَكُونَ نِعمَ الزَوجَةَ، وَهَدِيَةُ القَدَرَ، التِي تُعِيدُ إلَى قَلبِكَ الفَرحَةَ، وَإلَى وَجهِكَ الابتِسَامَةَ وَالاشرَاقَةَ المُفعَمَةَ بِالأَمَلِ.

قَاطَعَ حَدِيثَهَا، قَائِلاً:

ـ هَل أَنَا فِي حَقِيقَةٍ؟ أَم وَهم؟! أَنَا لا أُصَدِّقُ مَا أَسمَعهُ وَأَرَاهُ، أَنَا أَخشَّى أَنْ تَصفَعَنِي اليَقَظَةُ، وَتَحرِمُنِي مِنْ حُلمٍ جَمِيلٍ، وَتُعِيدُنِي إلَى وَاقِعٍ مُؤلِمٍ

فَابتَسَمَت، قَائِلَةً:

ـ لا اطمَـئِن، أَنَـا اليَقَظَـةُ بِعَينِهَـا، وَأُكَـرِّرُ لَـكَ رَغبَّتِي، وَمُـوَافَقَتِي بِالزَوَاجِ مِنكَ، وَبِكَامِلِ إرَادَتِي، وَلِيَ الشَرَفُ بِذَلِكَ.

طَـارَ قَلبُـهُ فَرِحَـاً، وَشَـكَرَهَا بِكَلِمَـاتٍ رَقِيقَـةٍ، وَاسـتَدعَى صَـدِيقَهُ «ناصر»؛ لِيَزِفَّ إلَيهِ بُشرَى الاتِفَاقِ، قَائِلاً:

ـ نَحنُ اتفَقنَا عَلَى الزَوَاجِ، دُونَ اللُجُـوءِ إلَى حِـوَارٍ تَقلِيدِيٍّ لأُمُـورٍ ثَانَوِيَةٍ، لَقَد اختَزَلنَا كُلَّ الأُمُورِ المُتَعَلِقَةِ بِهَذَا العَقدِ الرُوحِي بَينَنَا، فَلا دَاعِي لإضَاعَةِ المَزِيدِ مِنَ الوَقتِ بِمَتَاهَاتٍ لا طَائِلَ مِنْ وَرَائِهَا، وَرُبَّمَا تُلقِي بِأَفرَاحِنَا الفَتِيَةِ عَلَى مَصَدَّاتٍ لا يُمكِن تَجَاوزُهَا.

أَجَابَهُ صَدِيقُهُ «ناصر»، قَائِلاً:

.نِعمَ الرَأي. إذَاً يَا صَدِيقِي عَلَى بَرَكَةِ اللهِ نَتَوَكَّل، وَاترُك لِيَ المَجَالَ لإكمَالِ تَقَالِيدِ أَخذِ المُوَافَقَاتِ، وَالتَهَيُّؤَ لِمَرَاسِيمِ زَوَاجِكُمَا.

بَعـدَ أَيَـامٍ قَلائِـلَ، حَضَـرَ الجَمِيـعُ الـزَوَاجِ بِفَـرَحٍ غَـامِرٍ، وَهَكَـذَا عَادَت الحَيَاةُ تَدِبُّ فِي مَنزِلٍ كَئِيبٍ، وَبَدَأَت ضَحِكَاتُ الأَطفَالِ تُجَلجِلُ بِجَنَبَاتِهِ, لَقَد أَينَعَت الآمَالُ وَالأَحلامُ مِنْ تَحتِ رَمَادِ اليَأسِ.

المُنْقِذُ

«سلمى» تِلكَ الفَتَاةُ الفَاتِنَةُ المُشرِقَةُ كَالزَهرَةِ المُتَفتِحَةِ، أَلقَاهَا الحَظُّ بِبَرَاثِنِ زَوجٍ أَذَاقَهَا المَرَارَ وَالوَيلَ، تَتَمَثَلَ بِهِ كُلُّ الصِفَاتِ لِمَسَاوِئِ الخُلُقِ وَالرَذِيلَةِ.

«جابر» ذَلِكَ الرَجُلُ الذِي طُبِعَ عَلَى قَلبِهِ البُغضَ وَالتَوَحُشَ، لَقَد كَانَ يَتَلَذَّذُ بِضَربِهَا بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ وَبَطشٍ لا لِشَيءٍ؛ إلا لإشبَاعِ غُرُورَهُ، وَاستِرضَاءً لِنَزَوَاتِهِ السَادِيَةِ المُقرِفَةِ، وَلِلتَشَفِي بِهَا مِنْ انعِكَاسَاتٍ نَفسِيَةٍ مُقلِقَةٍ لِرُجُولَةٍ عَقِيمَةٍ، تَسَبَبَت بِعَدَمِ انجَابِهَا طِفلٍ لَهُ.

يُبرُحُهَا ضَرباً وَكَأَنَّهُ يُلاقِي خَصمَاً مُتَكَافِئَاً إلَى أَنْ يُوقِعُهَا أَرضَاً مُغشِيَاً عَلَيهَا.

تَتَكَرَرُ مَأسَاتُهَا كُلَّ يَومٍ، بَعدَ أَنْ يَعُودَ لِلمَنزِلِ وَرَائِحَةُ الخَمرِ تَملأُ جَنَبَاتَ المَكَانِ، وَفِي إحدَى اللَيَالِي أَطلَقَاً سِيجَارَتَهُ بِخَدِّهَا، وَهِي نَائِمَةٌ مِمَّا تَسَبَبَ لَهَا بِحَالَةٍ هِستِيرِيَةٍ، بَقِيَت تُعَانِي مِنهَا زَمَنَاً طَوِيلاً.

لَمْ تَترُك «سلمى» بَابَاً إلا وَقَصَدَتهُ لِلخَلاصِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدوَى بِظِلِّ وَالِدٍ ضَعِيفِ الشَخصِيَةِ، مُتَرَدِّدٍ لا يَتَمَكَّن مِنْ حِمَايَتِهَا، كَانَ يَرتَعِشُ كَالفَرَاشَةِ أَمَامَ «جابر» وَسَطوَتَهُ.

لَمْ يُبقِّ «جابر» فِي المَنزِلِ أَيَّةَ مُقتَنَيَاتٍ إلا وَحَطَمَهَا، فَكَمْ حَطَمَ مِنْ الزُجَاجِيَاتِ عَلَى رَأسِ «سلمى» وَلَيسَ لَدَيهَا سِوَى الدُمُوعَ.

طَلَّقَهَا مَرَّتَين، وَلَمْ يَتَعِظ بَعَد أَنْ يَتَوَسَطَ لِلنَاسِ؛ لإعَادَةِ الوَضعِ إلَى الرِضَا وَالمُصَالَحَةِ.

لَمْ تَنفَع شَكوَاهَا مِنْ استِمرَارِ مُمَارَسَةِ جُنُونِهِ، بِإِيذَائِهَا دُونَ رَادِعٍ أَخلاقِيٍّ أو دِينِيّ.

أَلقَت بِهَا الأَقدَارُ ضَحِيَةً بِمَشِيئَةِ رَجُلٍ فَاقِدٍ لِرُجُولَتِهِ، وَلَمْ يَتَحَقَّق حُلمَهُ بِطِفلٍ، وَهَذَا لَيسَ ذَنبُهَا، بَل إِرَادَةُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَكُن كَرِيمَ الخُلُقِ؛ لِيُطلِقَ سَرَاحَهَا، لِتُكمِلُ حَيَاتَهَا مَعَ رَجُلٍ آخَر.

لَمْ تَكُن الأُمُورُ أَفضَلَ بَعدَ عَودَتِهَا مِنْ طَلاقِهَا الثَانِي، بَل ازدَادَت سُوءاً، وَأَصبَح جَسَدُهُ لا يَستَوعِب جُرُعَاتِ الخَمرِ وَالعَقَارَاتِ المُخَدِرَةِ، فَأَصبَحَ أُضحُوكَةً لِصِبيَانِ الحَيّ، عِندَمَا يَتَرَنَّح بِالأَوحَالِ وَالمُستَنقَعَاتِ الآسِنَةِ، تُتَابِعُهُ أَصوَاتُ الأَطفَالِ، وَضَحِكَاتُهُم تُمَزِقُ كِبرِيَاءَ «سلمى»، وَتُثِيرُ إِحرَاجُهَا، وَمَشَاعِرُ الشَفَقَةِ نَحوَهُ رُغمَ كُلَّ مَا يُمَارِسَهُ بِحَقِّهَا مِنْ وَحشِيَةٍ وَقَسوَةٍ مُفرِطَةٍ.

فِي لَيلَةٍ ظَلمَاءٍ انهَالَ عَلَيهَا ضَرباً كَعَادَتِهِ، وَلَمْ يَكتَفِّ عِندَ حَدٍّ حَيثُ أَلقَى بِهَا إِلَى الشَارِعِ مَعَ طَلاقٍ ثَالِثٍ وَأَخِيرٍ، وَتَرَكَهَا بِمَتَاهَاتِ الحَيرَةِ وَالقَلَقِ وَالخَوفِ، بِذَلِكَ اللَيلِ المُوحِشِ، وَعِوَاءِ الكِلابِ السَائِبَةِ، يُثِيرُ الرُعبُ فِي قَلبِهَا الطَيِّبِ، حَتَى استَنجَدَت بِامرَأَةٍ عَجُوزٍ مِنَ الجِيرَانِ لِتُوصِلُهَا إِلَى أَهلِهَا.

رُبَّمَا حَمَلَت هُمُومُ هَذِهِ اللَيلَةِ السَوداءِ وَمضَةَ أَمَلٍ؛ لِلخَلاصِ مِنْ قُيُودِ «جابر»، تَطَابُقاً مَعَ مَا يَقتَضِيهِ الشَرعُ، وَتَوصِيَاتُ دِينِنَا الحَنِيفِ.

مَرَّتُ الأَيَامُ وَاللَيَالِي بِبُطءٍ عَلَى قَلبِ «سلمى»، وَبَعدَ أَنْ هَدَأَت العَاصِفَةُ، بَدَأَت تَهُبُّ مِنْ جَدِيدِ رِيَاحُ الصُلحِ، وَمُعَاوَدَةِ فُصُولَ المَهزَلَةِ التِي اعتَادَ عَلَيهَا كُلَّ مَرَّةٍ، وَلَكِنْ هَذِهِ المَرَّةِ تَعَقَدَت الأُمُورُ لَيسَ لِصَالِحِهِ، حَيثُ اصطَدَمَت جُهُودُهُمُ بِجِدَارٍ حَصِينٍ مِنْ أَحكَامِ

الشَرِيعَةِ السَمحَاءِ، لا تُتِيحُ استِرجَاعَهَا، بَلْ يَقتَضِي أَنْ تَتَزَوَجَ مِنْ رَجُلٍ آخَرٍ.

وَهَكَذَا رَسَمَت لَهَا الأَقدَارُ خَارِطَةَ إنقَاذِهَا مِنْ رَجُلٍ وَضِيعٍ، لازَالَ يُتَابِعُ خُطَاهَا بِكُلِّ لُؤمٍ وَحِقدٍ.

تَدَخَلَ الوُسَطَاءُ، وَبَذَلُوا جُهُوداً مُتَوَاصِلَةً؛ لِلبَحثِ عَنْ رَجُلٍ مُنَاسِبٍ، يَقبَلُ الزَوَاجَ مِنْ «سلمى»، وَيَتَعَهَدُ بِطَلاقِهَا، نُزُولاً عِندَ رَغبَةِ «جابر».

وَقَعَ اختِيَارُ الجَمِيعِ عَلَى «كمال»، ذَلِكَ الرَجُلَ الغَيُورَ الشَهمَ، كَانَ وَسِيمَ الشَكلِ، وَلَمْ يَتَزَوَج سَابِقَاً، وَيَعِيشُ وَحِيداً بَعدَ وَفَاةِ وَالِدَيهِ.

وَافَقَ «كمال» بِالزَوَاجِ مِنْ «سلمى»، وُفقَ شُرُوطِ التَزَمَ بِهَا مَعَ «جابر» وَثُلَّةٍ مِنْ مُنَاصِرِيهِ.

بَدَأَت مَرَاسِيمُ ذَلِكَ الزَوَاجِ بِمُبَارَكَةٍ مِنَ الجَمِيعِ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ الطَلاقُ بِسَقفٍ زَمَنِيٍّ حَدَدَهُ الوُسَطَاءُ.

لَيلَةِ الزِفَافِ، نُقِلَت «سلمى» إلَى حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ مَعَ رَجُلٍ مِثَالٍ لِلخُلُقِ، لَقَد كَانَ يُحَدِّثُهَا بِكُلِّ رِقَّةٍ وَلُطفٍ، وَيُبَادِلُهَا كَلِمَاتِ الحُبِّ، التِي لَمْ تَعتَدَهَا مِنْ قَبلِ، وَتَفُوحُ مِنْ لِسَانِهِ مَعَانِي الصِدقِ، وَيَشِعُّ مِنْ عَينَيهِ بَرِيقُ رُجُولَتُهُ، التِي يَنسَكِبُ الشَوقُ مِنهُمَا، حَتَى استَنهَضَ فِي قَلبِ «سلمى» الكَسِيرِ كُلُّ عَوَامِلِ الحُبِّ المَفقُودِ وَالعَوَاطِفِ المكبُوتَهِ.

اقتَرَبَ «كمال» مِنهَا، وَأَزَاحَ النِقَابَ عَنْ وَجهِهَا، فَأَشرَقَ عَلَيهِ وَجهُهَا الجَمِيلِ، حَتَى وَقَفَت أَمَامَهُ، وَهُوَ يَستَعرِضُ مُنثَنَيَاتِ جَسَدِهَا السَاحِرِ، التِي استَفَزَّت رَغبَاتُهُ الخَجُولَةِ، وَدِفءُ أَصَابِعِهَا

بِيَدَيهِ، أَعلَنَت بِأَعمَاقِهِ ثَورَةً كَامِنَةً لِفَيضٍ مِنْ مَشَاعِرِ الحُبِّ وَالإعجَابِ، وَفَتَحَت أَبوَاباً لِلتَمَرُّدِ وَالعِصيَانِ، عَلَى شُرُوطٍ مُجحِفَةٍ، وُضِعَت مُسبَقاً؛ لِفِرَاقٍ مَحتُومٍ، وَحِرمَانِهِ مِنْ هَذَا المَلاكِ الذِي استَولَتِ عَلَى قَلبِهِ، وَتَحقِيقِ حُلمَاً طَالَمَا رَاوَدَهُ بِالسَابِقِ، وَبَقِّيَ بِخَفَايَاهُ مِنَ الفَوزِ بِقَلبِ «سلمى»، بَعدَ أَنْ سَلَبَهَا «جابر» مِنْهُ، وَانتَهَت أَحلامُهُ بِزَوَاجِهَا الفَاشِلِ مِنْ «جابر».

لَقَد مَنَحَتهُ الحَيَاةُ هَذِهِ المَرَّةَ فُرصَةً ثَمِينَةً، لا يُمكِن أَنْ يُفَرِّطَ بِهَا، حَيثُ بَدَأَ يَرسِمَ الأُمُورَ وُفقَ مَا يُرِيدُ، رُغمَ مَا تَحمِلُهُ الأَيَامُ بِرَحِمِهَا مِنْ مُفَاجَآتٍ، فِي خِضَمِ آرَاءٍ مُتَضَارِبَةٍ، وَاجتِهَادَاتٍ يَتَبَاهَى بِهَا دُعَاةُ المَنطِقِ، وَأَجلافُ القَومِ، لا تَحمِل إلا المَزِيدَ مِنَ الأَلَمِ لِكُلِّ الأَطرَافِ.

وَضَعَ «كمال» يَدَهُ عَلَى رَأسِ «سلمى»، قَائِلاً:

.أَنَا أَعرِفُ مُعَانَاتِكِ مَعَ ذَلِكَ المَعتُوهِ، فَحَدِثِينِي شَيئَاً عَنهُ.

أَطرَقَت «سلمى» بِرَأسِهَا لِلَحظَاتٍ، خَجَلاً مِنْ رَجُلٍ أَحَسَّت لأَوَّلِ مَرَّةٍ بِأُنُوثَتِهَا قُربِهِ، وَمَخَاوِفِهَا مِنْ فَقدِهِ، فَقَالَت لَهُ:

ـ لَمْ يَكُنْ لِي ذَنبٌ سِوَى إشبَاعِ نَزَوَاتِهِ المُشِينَةِ، وَإملاءِ شُقُوقَ نَقصِهِ مِنْ رُجُولَةٍ مَفقُودَةٍ، يَملأَهَا بِدُمُوعِي وَآهَاتِي، وَتَمتَزِجِ بِدَمِّهِ غَرِيزَةُ البَطشِ، فَكَمْ تَمَنَّيتُ الخَلاصَ مِنْهُ.

حَزَنَ «كمال» لِسَمَاعِ شَكوَاهَا، وَبَرِيقُ الصِدقِ الذِي يُرَافِقُ دُمُوعَهَا، وَبَعدَ لَحظَاتٍ شَهَدَت التِقَاءِ رَوحَيهِمَا بِصَفَاءِ الصِدقِ وَالوَلاءِ لِبَعضِهِمَا، أَخبَرَهَا «كمال»، قَائِلاً:

.هَل تَرضِينَ بِي أَنْ أَكُونَ زَوجَاً أَبَدِيَاً لَكِ يَا «سلمى»؟

وَكَان وَقعُ هَذَا السُؤَالِ عَلَى مَسَامِعِ «سلمى» كَالإعصَارِ الهَائِجِ؛

لإزَاحَةِ نَفَايَاتِ الأَمسِ، وَأَكدَاسِ القَهرِ الجَاثِمِ عَلَى قَلبِهَا المِسكِينِ، أو كَنَغمَةِ النَايِّ التِي تُدَاوِي قَلبَهَا المَكلُوم. فَأَجَابَتهُ دُونَ عَنَاءٍ، بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَوُضُوحٍ، قَائِلَةً:

ـ لَوْ تَرضَّ يَا سَيِّدِي؛ لَقَبَّلتُ التُرَابَ الذِي يُلامِسَ قَدَمَيكَ، فَسَتَكُونَ أَجمَلُ أَيَامِ العُمرِ مَعكَ، سَأَكُونُ نِعمَ الزَوجَةِ المُطِيعَةِ، وَالحَبِيبَةِ الوَفِيَةِ، لَقَد أَيقَظتَ رَغبَاتِي الخَجُولَةُ وَالخَائِفَةُ، بِالبَقَاءِ مَدَى الحَيَاةِ مَعكَ.

قَالَ «كمال»:

ـ إذَاً يَنبَغِي أَنْ نَتَعَاهَدَ أَنْ نَكُونَ عِندَ مُستَوَى التَحَدِّي؛ لِمُلاقَاةِ الظُرُوفَ التِي تُحِيطُنَا بِبُغضِهَا وَجَبَرُوتِهَا لِتَفرِيقِنَا، وَإِعَادَتُكِ إِلَى فُصُولِ القَهرِ مِنْ جَدِيد.

قَالَت «سلمى»:

ـ أُعَاهِدُكَ يَا حَبِيبِي أَنَّنِي لَنْ أُغَادِرَ مَنزِلَكَ إلا جُثَّةً هَامِدَةً.

فِي اليَومِ التَالِي ذَهَبَ «كمال»؛ لِيُخبِرَ وَالِدَ «سلمى» بِقَرَارِهِم الأَخِيرِ.

لاذَّ وَالِدُ «سلمى» بِالصَمتِ المُطبِقِ، وَمَلامِحِ الخَوفِ وَالحَيرَةِ مُلتَصِقَةٌ عَلَى جُفُونِ عَينَيهِ، وَنَظَرَاتِهِ التَائِهَةِ بِوَجهِ «كمال» تُثِيرُ الشَفَقَةَ بِحَالِهِ، وَلَكِن «كمال» أَنقَذَ المَوقِفَ، قَائِلاً:

ـ أَنَا أُدرِكُ يَا عَمِّي حَيرَتَكَ؛ بِعَدَمِ نَقضِ مَوَاثِيقَ أَعطَيتَهَا لِقَومٍ، لا يَستَحِقُّونَ مِنَّا أَي التِزَامٍ، فَلا تَخجَلَ مِنْ حُثَالَةِ المُجتَمَعِ، الذِينَ يُزَوِّقُونَ الأَلفَاظَ، وَيَتَلاعَبُونَ بِالكَلِمَاتِ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِخُطَبِهِم الرَّنَّانَةِ الجَوفَاءِ، وَيَتَشَبَّثُونَ عَلَى أَكتَافِ الحَقِّ، وَيُلَبِّسُونَهُ أَطمَاراً بَالِيَةً، فَيُجَمِّلُونَ الشَرَّ بِبَرِيقِ الكَلِمَاتِ الزَائِفَةِ، التِي تَفُوحَ بِالحِكَمِ الفَارِغَةِ،

وَالكَلامِ البَاطِلِ وَقُلُوبُهُمُ مِنَ الرَحمَّةِ خَلاء، إنَّكَ تَخشَى مِنْ بَطشِ هَـذَا المُتَهَـوِّرِ، وَتَخَـافَ لِسَـانَهُ السَـلِيطَ، وَتَسـكُتَ أَمَـامَ شَـرعَ اللهِ بِمُنَاصَرَةِ الحَقِّ، وَالدِفَاعِ عَنِ المَظلُومِ.

بَعدَ أَنْ استَمَعَ وَالِدُ «سلمى» لِمَا قَالَهُ «كمال» مِنْ حَقٍّ، أَذعَنَ لإرَادَتَهُ، وَوَافَقَهُ الرَأيَّ السَدِيدَ، بِالاستِمرَارِ بِهَذَا الزَوَاجِ.

نَهَضَ «كمال»، قَائِلاً:

ـ عَلَى بَرَكَـةِ اللهِ؛ فَلـنَكُن جَمِيعَـاً بِمُسـتَوَى التَحَـدِّي، وَمِـنَ اللهِ العَونُ.

تَسَـرَّبَت الأَخبَـارُ بِسـرُعَةٍ، كَانتِشَـارِ العِطـرِ بِـالأَجوَاءِ، فَسَـمِعَ «جابر» بِتَمَسُّـكِ «كمال» بِـ«سلمى»، فَأَصبَحَ كَالثَورِ الهَائِجِ، حَيثُ هَـدَّدَ «كمـال» بِالقَتـلِ، الأَمـرُ الـذِي حَمَـل «كمـال» عَلَى الهَـرَبِ مَـعَ زَوجَتِهِ وَحَبِيبَتِهِ «سلمى» إِلَى مَدِينَةٍ أُخرَى، حَيثُ انتَهَى فَصلٌ بَائِسٌ مِنْ المُعَانَاةِ، وَابتَدَأَ مَوسِمٌ حَافِلٌ بِالفَرَحِ وَالسَعَادَةِ، وَبَعدَ مُرُورِ سَنَةٍ وَنِصف، رُزِقَا بِطِفلٍ جَمِيلٍ.

فِي إحـدَى اللَيَـالِي دَقَّ جَـرَسَ البَـابِ، وَإِذَا بِـ«جـابر» يَقِـفُ أَمَـامَ «كمال» وَجهٌ لِوَجهٍ، وَكَانَ «جابر» يَحمِلُ بِيَدِهِ مُسَدَسَـاً يُصَوِّبُهُ إِلَى رَأسِ «كمال».

أَرَادَ «كمـال» أَنْ يَدفَعَ «جابر» لِخَارِجِ البَابِ، وَلَكِنَ الأَخِيرُ تَمَكَّنَ مِـنَ الـدُخُولِ، وَأَطلَـقَ عَيَـارَاً نَارِيَـاً بِفَضَـاءِ المَنزِلِ؛ لإثَـارَةِ الخَـوفُ فِي قُلُوبِهِم، دَاعِيَاً «سلمى» بِمُرَافَقَتِهِ، الأَمرَ الذِي أَثَارَ حَفِيظَةَ «كمال»، فَالتَحَمَ الرَجُلانِ بِمَعرَكَةٍ شَرِسَـةٍ، فَـانطَلَقَ عِيَارٌ نَارِيٌّ آخَـرٌ، وَبَعدَهَا هَدَأَت المَعرَكَةُ، وَإِذْ بِـ«كمال» يَسقُطُ إِلَى الأَرضِ يَتَخَبَّطُ بِدَمِّهِ.

أَمسَـكَ «جـابر» يَـدَّ «سـلمى» بِقُـوَّةٍ؛ لِيَأخُـذُهَا عُنـوَةً مَعَـهُ، وَلَكِـن

صُرَاخَهَا وَصَوتَ الأَعِيرَةِ النَارِيَةِ، جَمَعَا النَاسُ مِنَ الجِيرَانِ وَغَيرِهِم، حَتَى ضَرَبَ أَحَدُهُمُ يَدَّ «جابر» بِحَجَرٍ، فَسَقَطَ المُسَدَّسُ مِنْ يَدِّهِ، وَأَحَاطُوهُ، ثُمَّ كَتَّفُوهُ، وَحَمَلُوهُ إِلَى قِسمِ الشُرطَةِ، وَحَمَلُوا «كمال» إِلَى المُستَشَفَى.

مَرَّت سَاعَاتٌ طِوَالٌ وَ«سلمى» قَلِقَةٌ بِشَأنِ حَبِيبِهَا، لا تَعرِفُ، هَل هُوَ حَيٌّ؟ أَم مَيِّتٌ؟ وَعُيُونُهَا شَاخِصَةٌ عَلَى أَبوَابِ غُرفَةِ العَمَلِيَاتِ فِي المُستَشفَى، وَشَفَتَاهَا تُتَمتِمُ بِدُعَاءٍ؛ لإِنقَاذِهِ. وَبَعدَ مُرُورِ وَقتٍ عَصِيبٍ سَحَقَ أَعصَابَهَا، أَخبَرُوهَا أَنَّ حَالَتَهُ مُستَقِرَّةٌ، وَأُجرِيَت لَهُ عَمَلِيَةٌ جِرَاحِيَةٌ؛ لاستِخرَاجِ الرَصَاصَةِ، وَتَجَاوَزَت حَالَتُهُ الخَطَرَ.

فِي اليَومِ التَالِي، جَلَسَت «سلمى» بِقُربِهِ، يَشِعُّ بِرِيقُ الأَمَلِ مِنْ عَينَيهَا لِسَلامَتِهِ، وَهِيَ تَشِدُّ عَلَى يَدِّهِ، تَوعِدُهُ خَيرَاً بِمُستَقبَلٍ زَاهِرٍ، لَقَد تَجَاوَزَا تِلكَ الأَنفَاقِ المُظلِمَةِ، وَكَبوَاتٍ كَانَت تَتَرَبَّصُ بِحُبِّهِمَا.

ضَحِكَاتِ طِفلُهُمَا الصَغِيرُ أَزَاحَت عَنْ قَلبَيهِمَا كُلَّ الهُمُومِ، وَفَتَحَت أَبوَابَاً مُشرِقَةً لِلمُستَقبَلِ.

حَيْرَةُ أَبٍ

لَمْ تُمهِلْهُ الأَيَامُ؛ لالتِقَاطِ الأَنفَاسِ فِي حَيَاةٍ، هِيَ الأَقسَى بِظِلِّ ظُرُوفٍ اقتِصَادِيَةٍ جَائِرَةٍ، أَلقَت ظِلالَهَا عَلَى ذَوِي الدَخلِ المَحدُودِ، رُغمَ أَنَّهُ مُكَافِحاً لا يَلِين؛ لِتَأمِينِ لُقمَةَ العَيشِ لأَطفَالِهِ الثَلاثَةِ، وَزَوجَتِهِ التِي عَانَت مَعَهُ أَشَدَّ حَالاتِ البُؤسِ وَالحَاجَةِ، وَأَتعَبَتهَا كَثِيراً الوِلادَاتُ المُتَكَرِّرَةِ؛ لِمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ سُوءٍ لِحَالَتِهَا الصِحِيَّةِ، فَقَرَّرَت الاكتِفَاءِ مِنَ الأَطفَالِ نِهَائِيَاً؛ لِعَدَمِ قُدرَتِهَا عَلَى مُجَارَاةِ فَترَةِ الحَملِ، مِنْ وَطأَةٍ ثَقِيلَةٍ، حَيثُ يُشِلُّ قُدرَتَهَا بِكَثرَةِ الأَمرَاضِ، كَالضَغطِ وَالسُكَّرِي، وَلَكِن كَمَا يُقَالُ: «تَأتِي الرِيَاحُ بِمَا لا تَشتَهِي السُفُنُ». فَحَدَثَ مَا لَم يَكُن فِي الحُسبَان.

وَبَعدَ خُضُوعِهَا لِفُحُوصَاتٍ مُختَبَرِيَةٍ، أَدرَكَت أَنَّهَا حَامِلُ؛ مِمَّا دَعَاهَا لإعلانِ ثَورَةٍ عَارِمَةٍ عَلَى نَفسِهَا، بِمَصِيرٍ مَحتُومٍ، اتَخَذَتهُ مُسبَقَاً لِطِفلٍ يَتَوَسَدُ أَحشَائِهَا، حَيثُ وَعَدَت نَفسَهَا بَأَسوَأِ الاحتِمَالاتِ، وَالتَخَلُّصِ مِنْ هَذَا الجَنِينِ، مَهمَا كَلَّفَهَا الأَمرُ، حَتَى وَإِنْ كَانَت حَيَاتَهَا.

بَعدَ تَوَسُّطِ الأَهلِ وَالأَقَارِبِ؛ لإقنَاعِهَا بِالعُدُولِ عَنْ هَذَا القَرَارِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَدَاعِيَاتٍ دِينِيَةٍ وَأَخلاقِيَةٍ، بِحَقِّ طِفلٍ بَرِيءٍ لَمْ يَرَّ النُورَ، وَإبعَادِهَا عَنْ أَيَادٍ آثِمَةٍ، لا تَتَرَدَّد عَنْ زَهقِ أَروَاحِ الأَجِنَّةِ، مُقَابِلِ حِفنَةٍ مِنَ النُقُودِ.

تَوَصَّلَتِ الأَطرَافُ إِلَى اتَفَاقٍ، مَفَادَهُ أَنْ تَتَبَنَّى العَمَّةُ هَذَا الطِفلَ، حِينَ وِلادَتِهِ؛ كَونِهَا عَاقِراً، وَلَدَيهَا الرَغبَةُ بِالتَبَنِّي، وَالحَنِينِ لِطِفلٍ

صَغِيرٍ، يَملأُ فَرَاغَهَا.

سَارَت الأُمُورُ عَلَى هَذَا الاتِفَاقِ، مَعَ سُوءِ حَالَةِ الأُمِّ المِسكِينَةِ، كَعَهدِهَا بِكُلِّ حَملٍ سَابِقٍ، مِمَّا زَادَهَا إصرَارَاً، وَبِقَنَاعَةٍ كَامِلَةٍ، عَلَى مَنحِ مَولُودِهَا الجَدِيدِ دُونَ تَرَدُّدٍ.

جَاءَ يَومُ الوِلادَةِ، الذِي خَضَعَت فِيهِ الأُمُّ إلَى عَمَلِيَةٍ جِرَاحِيَةٍ، مِمَّا عَرَّضَهَا لِخَطَرٍ حَقِيقِيٍّ، أَدَّى لاستِئصَالِ الرَحِمِ.

وَلَدَت طِفلَةً جَمِيلَةً، حَمَلَتهَا العَمَّةُ الفَرِحَةُ، بِهَذِهِ الهَدِيَةِ الغَالِيَةِ، وَبَعدَ أَنْ استَقَرَّتَ حَالَةُ الأُمِّ حَدَّثَتهَا العَمَّةُ، قَائِلَةً:

ـ حَمداً للهِ عَلَى سَلامَتِكِ، هَل تَرغَبِينَ بِرُؤيَةِ هَذِهِ العَرُوسَةِ الجَمِيلَةِ؟

فَقَالَتِ الأُمُّ:

ـ لا أَرغَبُ بِرُؤيَتِهَا، خُذِيهَا، وَلا تَعتَقِدِي أَنَّنِي أَتَرَدَّدُ عَنْ عَهدٍ اتَخَذتُهُ.

فَأَجَابَتهَا العَمَّةُ، قَائِلَةً:

ـ وَهَل أَنتِ مُقتَنِعَةٌ تَمَامَاً، وَبِكُلِّ إرَادَتِكِ، قَبلَ أَنْ أُغَادِرَ المُستَشفَى؟

فَأَجَابَتهَا الأُمُّ، قَائِلَةً:

.خُذِيهَا بِكُلِّ رَغبَتِي، وَفَقَّكِ اللهُ، وَتُرَافِقُكِ السَلامَةُ.

عَادَتِ العَمَّةُ إلَى مَنزِلِهَا، سَعِيدَةً بِهَذِهِ الضَيفَةِ، التِي أَطلَقُوا عَلَيهَا اسمَ «جهاد».

كَرَّسَتِ العَمَّةُ جُهُودَهَا عَلَى خُطُوَاتِ أُمُومَةٍ حَقِيقِيَةٍ، وَالاعتِنَاءِ بِالطِفلَةِ كَمَا يَنبَغِي، وَتَوفِيرِ كُلَّ مُستَلزَمَاتِهَا.

بَعدَ مُرُورِ فَترَةٍ مِنَ الزَمَنِ، وَبَعدَ أَنْ تَحَسَنَتَ حَالَةُ الأُمِّ تَمَامَاً،

طَلَبَت مِنْ زَوجِهَا زِيَارَةَ بَيتَ شَقِيقَتِهِ؛ لُرُؤيَةِ الطِفلَةِ، وَبَعدَ أَنْ وَصَلا هُنَاك، جَلَسَت قُربَ سَرِيرِ طِفلَتِهَا الصَغِيرَةِ، وَكَانَ سَرِيراً فَاخِراً، يَعِجُّ بَأَغلَى الهَدَايَا، وَالتَمَائِمِ، وَكَثِيرٍ مِنَ الأَلعَابِ المُلَوَّنَةِ، وَكُلِّهَا تَرتَعِشِ تَحتَ ضَوءِ المَصَابِيحِ، وَتَنعَكِسِ عَلَى وَجهِ تِلكَ الطِفلَةِ المُشرِقِ، وَكَأَنَّهَا بِاحتِفَالِيَةٍ دَائِمَةٍ.

كَانَ الجَمِيعُ يُرَاقِبُ انفِعَالاتِ الأُمِّ، وَهِيَ تُدَاعِبُ ابنَتَهَا، وَخُصُوصاً الأَبَّ الذِي يَعرِفُ زَوجَتَهُ أَكثَرَ مِنَ الآخَرِينِ، حَيثُ يَعرِفُ، بَلْ وَيَتَحَسَّسِ مَشَاعِرِ الأُمُومَةِ التِي تَغلِي بِدَاخِلِهَا، وَلَكِنَهَا تَمَاسَكَتِ، وَأَبَّتِ أَنْ تُعطِي أَي انطِبَاعٍ عَنْ إِشَارَاتِ ضَعفٍ أو نَقضِ عَهدٍ أو رُؤيَةِ أَيَّةِ بَوَادِرٍ لِلنَدَمِ، فَبَقِيَت مُنطَوِيَةً تُجَامِلِ الكَلامِ بِابتِسَامَاتٍ مُفتَعَلَةٍ، وَكَثِيراً مَا كَانَتِ تَلُوذِ بِالصَمتِ، إِلَى أَنْ عَادَتَ إِلَى مَنزِلِهَا، وَهِي تَتَلَّوَى أَلَماً وَقَهراً، وَلَكِنَهَا لا تَبُوحُ بِمَا يَعتَصِرِ أَحشَائَهَا، مِنْ نَدَمٍ وَتَرَاجُعٍ لِخُطوَةٍ، حَطَّمَت قَلبَهَا إِرَبَاً، وَكَانَت تَخشَّى الحَدِيثَ أَمَامَ زَوجِهَا وَأَطفَالِهَا، فَالجَمِيعُ غَيرَ مُقتَنِعٍ، وَلَكِن تَجَرَّعُوا قَبُولَ رَغبَتَهَا مُرغَمِين.

بَكَت كَثِيراً بِخُلوَتِهَا، وَبِحُرقَةٍ عَلَى تَسَرُّعِهَا بِقَرَارٍ أَدمَى مُهجَتَهَا، وَقَطَّعَ نِيَاطَ قَلبَهَا، وَهِي تَخشَّى مَلامَةَ الجَمِيعِ، فَرُبَّمَا يَنتَقِدُونَ تَقَلُّبَاتِ قَرَارَاتِهَا.

أَحزَانُهَا تَنهَشُ جَوَارِحهَا، كَغَلَيَانِ البَرَاكِينِ الدَّفِينَةِ بِأَحشَاءِ الأَرضِ.

أَحَدِ الأَيَامِ طَلَبَتِ الأُمُّ زِيَارَةَ طِفلَتِهَا، وَهَذِهِ المَرَّةِ وَضَعَتَهَا بِحِجرِهَا، وَهِيَ تَمسَحُ عَلَى شَعرِهَا النَاعِمِ، وَتُتَمتِمُ لَهَا بِأُغنِيَةٍ حَزِينَةٍ، تَحتِ أَنظَارِ وَذُهُولِ المُتَوَاجِدِينِ، وَكَانَتِ الطِفلَةُ تَبتَسِمِ بِوَجهِ الأُمِّ

ابتِسَامَاتٍ بَرِيئَةٍ، وَأَحيَانَاً تُرَفِقُهَا بِقَهقَهَةٍ سَاذَجَةٍ، سَلَبَتِ إرَادَتَهَا، وَاستَنهَضَتِ كُلَّ مَشَاعِرِ الأُمُومَةِ، المُتَوَارِيَةِ خَلفَ حِجَابِ الخَجَلِ، وَالالتِزَامِ بِالكَلِمَةِ.

عَادَتِ الأُمُّ لِمَنزِلِهَا، يُصَاحِبُهَا الحُزنُ العَمِيقُ، وَضَحِكَاتُ الطِفلَةِ التِي لا تُفَارِقِ مُخَيِلَتِهَا، فَجُنَّ جُنُونُهَا، وَقَرَّرَتِ التَمَرَّدَ وَالعِصيَانَ بِوَجهِ مَنْ يَمنَعُهَا مِنَ استِعَادَةِ طِفلَتِهَا، وَبَعدَ أَنْ تَدَخّلَ وَالِدُ الطِفلَةِ لِيَشرَحَ لَهَا وُجهَةَ نَظَرِهِ؛ لِيُهَدِّئَ مِنْ رَوعِهَا اتَّهَمَتهُ بِالاشتِرَاكِ بِمُؤَامَرَةٍ لِسَرِقَةِ الطِفلَةِ، الأَمرَ الذِي أَثَارَ حَفِيظَتَهُ فَوَبَّخَهَا بِعُنفٍ، وَذَكَّرَهَا بِالاتِفَاقِ، وَلَكِن دُونَ جَدوَّى، فَكُلُّ جُهُودِهِ أَصبَحَت هَبَاءً أَمَامَ امرَأَةٍ هَائِجَةٍ غَاضِبَةٍ، الأَمرَ الذِي وَضَعَهُ بِمَوقِفٍ لا يُحسَدُ عَلَيهِ، حَائِرَاً بَينَ وَاجِبَاتِهِ كَأَبٍ، وَالتِزَامَاتِهِ بِمَوَاثِيقٍ، وَاتّفَاقٍ مَعَ شَقِيقَتِهِ، لا يُمكِنُ التَنَصُّلِ عَنْهَا، تَحتَ أَي إدّعَاءٍ أو مُبَرِّرٍ؛ لِيَكسِرَ قَلبَهَا، وَضَيَاعِ أَحلامُهَا بِحُبِّ هَذِهِ الطِفلَةِ، التِي أَصبَحَتِ كُلَّ حَيَاتِهَا.

تَعَقَّدَتِ الأُمُورُ بِوَجهِ هَذَا الرَجُلِ المِسكِينِ، فَأَدرَكَ تَفَاقُمَ الأُمُورَ، التِي وَضَعَتِ الجَمِيعَ أَمَامَ مُشكِلَةٍ حَقِيقِيَةٍ، وَخُصُوصَاً مَا يَدُورُ بِأَفكَارِهِ، تَتَقَاذَفُهُ أَمواجُ الحَيرَةِ، وَالحُزنُ بَينَ عَوَاطِفِ امرَأَتَينِ مُتَنَاقِضَتَينِ بِاختِيَارَاتِهِمَا، فَكُلٌّ مِنْهُمَا تَدَّعِي أَحَقِّيَتَهَا بِرِعَايَةِ الطِفلَةِ.

بَقِيَ ذَلِكَ الأَبُّ مُنكَسِرَاً بَائِسَاً، لَمْ تِسعِفهُ أَي وَمضَةٍ لِفِكرٍ أو رَأيٍّ سَدِيدٍ، يُسعِفُ الوَضعَ، وَيُوَفِّقُ بَينَ مَطَالِبِ المَرأَتَين، رُغمَ رَفضِهِ تَدَخُّلاتٍ يَدفَعهَا التَشَدُّدُ مِنْ أَهلِ الزَوجَةِ، فَكَانَ طَمُوحَاً لِلتَوَصُّلِ لِحُلُولٍ لا يَفقِدُ أَيَّةً مِنَ المَرأَتَينِ، زَوجَتِهِ وَشَقِيقَتِهِ.

أَصبَحَ بَيتُهُ كَالجَحِيمِ، يَعِجُّ بِنَشِيجِ وَعَوِيلِ زَوجَتَهُ المُتَوَاصِلِ، وَلِسَانُهَا يَلهَجُ بِالحَدِيثِ عَنْ «جهاد» وَجَمَالِهَا وَابتِسَامَاتِهَا، التِي

لامَسَتِ شُغَافَ قَلبَهَا.

اضطَرَّ لِلبَقَاءِ لِسَاعَاتٍ طِوَالٍ خَارِجَ المَنزِلِ؛ لَعَلَّهَا تُنسِيهِ مُعَانَاةَ المُوَاجَهَةِ مَعَ زَوجَتِهِ المَجنُونَةِ عَلَى فِرَاقِ ابنَتِهَا، وَكَم تَزدَادُ أَحزَانُهُ فِي مَنزِلِ شَقِيقَتِهِ، عِندَمَا سَمِعَ كَلِمَاتِهَا، التِي فَضَلَّتِ المَوتَ عَلَى فِرَاقِ «جهاد»، التِي مَلأتِ ذَلِكَ البَيتَ بِالسَعَادَةِ.

بَعدَ أَنْ تَأَزَّمَتَ الأُمُورُ إِلَى مَادِّيَاتٍ، أَصبَحَتَ فِيهَا الحَيَاةُ جَحِيمٍ مُستَعِرٍ بِوَتِيرَةٍ مُؤلِمَةٍ، تَمَكَّنَ الرَجُلُ أَخِيراً مِنَ الوُقُوفِ أَمَامِ شَقِيقَتِهِ، بِوَضعٍ مُؤلِمٍ، يَستَرضِيهَا مُتَوَسِلاً بِالتَنَازُلِ عَنْ ابنَتِهِ، مَعَ الاعتِرَافِ بِالهَزِيمَةِ، وَالتَنَصُّلِ مِنْ كُلِّ الاتِفَاقَاتِ، وَمَا يَعتَرِيهِ مِنْ إحرَاجٍ، وَحَدَّثَهَا كَثِيراً عَنْ مُعَانَاةِ أُمِّ الطِفلَةِ، وَالأَلَمِ الذِي تُعَانِيهِ، وَمَدَى تَعَرُّضُهُ لِضُغُوطٍ، لا يَتَمَكَّنُ مِنْ مُسَايَرَتِهَا.

لَحظَاتٌ حَرِجَةٌ عِندَمَا أَجهَشَتِ شَقِيقَتُهُ بِبُكَاءٍ مُتَوَاصِلٍ، وَبَعدَهَا التَزَمَتِ الصَمتِ المُطبِقِ؛ إِكرَاماً لأَخِيهَا، وَبِعُيُونٍ دَامِعَةٍ، ثُمَّ أَشَارَت بِرَأسِهَا بِالمُوَافَقَةِ عَلَى طَلَبِهِ، مُرغَمَةً بَعدَ أَنْ تَحَجَّرَتِ الكَلِمَاتُ عَلَى لِسَانِهَا.

خَرَجَ الرَجُلُ يَحمِلُ الطِفلَةَ بَينَ يَدَيهِ، وَالكُلُّ يَتبَعُهُ إِلَى سَيَارَةِ الأُجرَةِ، وَهُم يَحمِلُونَ كُلَّ أَشيَائِهَا؛ كَونُهُمُ لا يُرِيدُونَ رُؤيَةَ أَي شَيءٍ يُذَكِّرَهُم بِهَا.

ابتَعَدَت السَيَّارَةُ، وَعُيُونُهُمُ عَادَتِ تَحمِلُ مَزِيداً مِنَ الدَمعِ، وَصُورَةِ «جهاد» مُلتَصِقَةٍ فِيهَا إِلَى الأَبَدِ.

الفَخُّ

شَخصِيَةٌ مُمَيَزَةٌ، يَملِكُ دُكَّاناً فِي قَلبِ المَدِينَةِ، رُبَّمَا أَحَبَّهُ النَاسُ لِطِيبَةِ قَلبِهِ، وَدَمَاثَةِ خُلُقِهِ، فَهُوَ يَعطِفُ عَلَى الفُقَرَاءِ بِشَكلٍ لا يُصَدَّق، وَلا يَبخَلُ فِي العَطَاءِ لِكُلِّ مَنْ يَحتَاج لِمُسَاعَدَة.

ذَاتِ يَومٍ وَقَفَ أَمَامَهُ رَجُلٌ رَثَّ الثِيَابِ، مُتعَبَ المَلامِحِ، ذَمِيمَ الشَكلِ، تَرتَسِمُ الحَاجَةُ وَالفَقرُ عَلَى مُحَيَّاهِ الذَابِلِ. دَخَلَ لِلمَحَلِّ يَشتَرِي شَيئاً، فَأَثَارَت هَيأَتُهُ استِغرَابَ الرَجُلِ الطَيِّبِ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالَتِهِ، وَكَأَنَّهُ ضَغَطَ عَلَى جُرحٍ مُؤلِمٍ، فَبَدَأَ الفَقِيرُ يَشرَحُ وَبِإسهَابٍ عَنْ مَدَى حَاجَتِهِ وَحَيَاتِهِ المُتَلِئَةِ بِالأَلَمِ وَالجُوعِ وَالقَهرِ، بِكُلِّ مَا تُحِيطُهُ مِنْ ظُرُوفٍ مَأسَاوِيَةٍ، حَيثُ يَسكُن بَيتَ بِالإيجَارِ، خَرِبٍ آيلٍ لِلانهِيَارِ بِالكَامِلِ، بَعدَ أَنْ انهَارَ مُعظَمُهُ، إلا مِنْ غُرفَةٍ وَاحِدَةٍ، اجتَمَعَ فِيهَا هُوَ وَزَوجَتُهُ وَأَطفَالُهُ الثَلاثَةِ.

تَأَلَّمَ لَهُ كَثِيراً لِسَمَاعِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ المُؤلِمَةِ، فَرَقَّ قَلبُهُ لِهَذِهِ الصَرخَاتِ الإنسَانِيَةِ المُوجِعَةِ، التِي تَختَرِقُ الضَمَائِرَ الحَيَّةِ، فَتَعَاطَفَ مَعَهُ فَأَعطَاهُ احتِيَاجَاتَهُ، وَمَبلَغاً مِنَ المَالِ لِيَشتَرِّ مَلابِسَ لأَطفَالِهِ وَبَعضَ الأَشيَاءِ، فَرَحَ الرَجُلُ بِهَذِهِ الالتِفَاتَةِ الكَرِيمَةِ، وَلِسَانُهُ يَلهَجُ بِالشُكرِ وَالدَعوَاتِ لِذَلِكَ المَلاكِ الطَيِّبِ.

بَعدَ ثَلاثَةِ أَيَامٍ جَاءَ ذَلِكَ الفَقِيرُ شَاكِيَاً بَاكِيَاً؛ مِمَّا وَصَلَت إلَيهِ الأُمُورُ، وَعَدَم مَقدِرَتِهِ لِتَسدِيدِ إيجَارِ بَيتِهِ، وَاحتِيَاجَاتِهِ الكَثِيرَةِ، وَهُوَ غَيرُ قَادِرٍ عَلَى إنجَازِ أَي عَمَلٍ لِمَرَضِهِ كَمَا ادَّعَى؛ فَأَثَارَت شَكوَاهُ استِعطَافَ الرَجُلِ الكَرِيمِ، فَأَكرَمَهُ بِمَبلَغٍ مِنَ المَالِ، وَوَعَدَهُ خَيراً

عِندَمَا يَحتَاج مَرَّةً أُخرَى.

هَكَذَا تَكَرَّرَتِ الزِيَارَاتُ، وَازدَادَتِ الشَكوَى وَالتَأَلُّمِ؛ حَتَى تَوَسلَ إلَيهِ يَوماً لاصطِحَابِهِ لِرُؤيَةِ حَالَةِ البُؤسِ بِعَينَيهِ، لِيُصَدِّقَ مَا يَدَّعِيهِ مِنْ كَلامٍ.

رَافَقَهُ بِسَيَارَتِهِ الخَاصَةِ بَعدَ أَنْ حَمَل الكَثِيرَ مِنَ الهَدَايَا لِلأَطفَالِ وَلِزَوجَتِهِ.

وَصَلا إلَى تِلكَ المَنَازِلِ العَشوَائِيَةِ، التِي انتَشَرَت بِشَكلٍ فَوضَوِيٍّ عَلَى أَرَاضٍ تَابِعَةٍ لِلدَولَةِ، استَوطَنُوهَا بِدُونِ أَي إذْنٍ حَيثُ أُطلِقَ عَلَيهَا «المَأوَى».

تَرَجَّلا مِنَ السَيَارَةِ، بَعدَ أَنْ رَكَنَهَا عَلَى الشَارِعِ العَامِ، وَسَارَا عَلَى الأَقدَامِ، بَينَ الأَوحَالِ، وَالمَمَرَّاتِ المُلتَوِيَةِ، وَأَزِقَّةٍ مُظلِمَةٍ تَفُوحُ مِنْهَا رَوَائِحٌ كَرِيهَةٌ، تَملأُ جَنَبَاتِهَا المِيَاهُ الآسِنَةِ، وَتَرقُدُ عَلَى أَنفَاسِهَا أَكدَاسُ القَاذُورَاتِ.

بَعدَ جُهدٍ كَبِيرٍ وَصَلا إلَى ذَلِكَ الوَكرِ المُنهَارِ، فَتَحَ البَابَ لِضَيفِهِ العَزِيزِ، وَلِسَانُهُ يَلُوكُ أَجمَلَ عِبَارَاتِ الثَنَاءِ، لِهَذِهِ الزِيَارَةِ المَيمُونَةِ الكَرِيمَةِ.

أَدخَلَهُ إلَى الغُرفَةِ الوَحِيدَةِ، حَتَى وَقَفَ أَمَامَ فَتَاةٍ رَائِعَةِ الجَمَالِ، مَمشُوقَةِ القَوَامِ، تَبدُو اهتِمَامَاتِهَا وَاضِحَةٌ بِجَمَالِهَا، وَأَلوَانِ مَلابِسِهَا تَعكِسَ الأَضوَاءِ، وَبَشرَتِهَا البَيضَاءِ مُشرِقَةٌ كَالقَمَرِ، وَهِيَ تُرَحِبُ بِحَرَارَةٍ بِالرَجُلِ المُنقِذِ، ثُمَّ دَعَتهُ لِلجُلُوسِ، فَجَلَسَ الرَجُلُ، وَهُوَ مَذهُولٌ تَتَمَلَّكُهُ الحَيرَةُ مِنْ غَرَابَةِ مَا يَرَاهُ، أَيُعقَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الفَاتِنَةَ زَوجَةَ لِذَلِكَ المُتَسَكِّعِ وَبِفَارِقِ السِنِّ الكَبِيرِ؟! فَمِنْ غَيرِ المَقبُولِ أَنْ يَرِقَّ قَلبُ إنسَانٍ تَحمِلُهُ طِيبَتُهُ لِلمُسَاعَدَةِ، أَمَامَ أُمُورٍ

تَبدُو بِغَايَةِ الغَرَابَةِ مِنْ تَوَجُّعِ رَجُلٍ مِسكِينٍ، وَمُبَاهَاةِ فَتَاةٍ بِرَشَاقَتِهَا وَجَمَالِهَا كَالطَاوُوسِ، أَمَامِ مَنْ يَرُومُ تَقدِيمَ مُسَاعَدَةً.

تَدُورُ فِي أَفكَارِهِ المُضطَرِبَةِ صِرَاعَاتٌ، وَحَربٌ حَمَى وَطِيسُهَا، كَأَنَّهُ يَرتَقِي صَفِيحاً سَاخِناً، فَكَانَ يَغُضُّ الطَرفَ عَنهَا، رُغمَ كَلِمَاتِهَا الوَدُودَةِ لَهُ، يَتَحَاشَى النَظَرَ فِي عَينَيهَا بِغِيَابِ زَوجِهَا، الذِي ذَهَبَ لِيَجلِبَ لَهُ شَيئاً مِنْ بَابِ الضِيَافَةِ، مِنْ دُكَّانٍ صَغِيرٍ بِذَلِكَ الحَيّ.

أَحَسَّ بِمَشَاعِرِ الأَسَفِ وَالنَدَمِ تَمخُرُ عَبَابَ ذَاكِرَتِهِ، وَمَشَاعِرِ الخَجَلِ مِنْ كِبرِيَائِهِ، وَهُوَ مُنزَوٍ كَالقِطِّ لا يَعرِفُ مَا يَدُورُ حَولُهُ مِنْ أُمُورٍ، وَمَا يَدُورُ بِقُلُوبِ هَؤُلاءِ النَكِرَةِ، وَمَشَاعِرِ سُوءِ الظَنّ التِي بَدَت أَقرَبُ إِلى العَقلِ، حَتَى انتَبَهَ لِكَلِمَاتِهَا المَعسُولَةِ التِي يَسِيلُ مِنهَا الشَهدُ، وَنَظَرَاتُهَا الرَقِيقَةِ التِي استَبَاحَت مَكَارِمَ وَقَارَهُ، الذِي لا يُعِيرُ لِلحَيَاةِ أَهَمِيَةً، فَكَانَ لا يَملِكُ وَقتاً إلا وَكَرَّسَهُ لِلعِبَادَةِ وَالتَوبَةِ.

انتَظَرَ زَوجَهَا بِفَارِغِ الصَبرِ، حَتَى يَعُودَ مِنْ رِحلَةِ العَجَائِبِ، فَطَلَبَ مِنْهَا أَلا تُحَدِّثَهُ أَبَداً؛ إِجلالاً لِرَجُلٍ وَثَقَ بِهِ وَأَدخَلَهُ لِبَيتِهِ، قَائِلاً:

.يَا ابنَتِي لا يَجُوزُ الحَدِيثَ مَعكِ عَلَى إِنفِرَادٍ إلا بَعدِ عَودَةِ زَوجُكِ.

ضَحِكَتِ الفَتَاةُ مِنْ قَلبِهَا، وَبَعدِ لَحظَاتِ صَمتٍ طَلَبَت مِنْهُ رَقمَ هَاتِفِهِ، فَاستَنكَرَ وَقَاحَتَهَا، لَكِنَهَا تَوَسَّلَت لَهُ بِأَنَّهَا لَهَا قَصداً آخَرَ؛ لِكَي تُطلِعُهُ عَلَى سِرٍّ خَطِيرٍ، وَبَعدِ تَرَدُّدٍ أَعطَاهَا الرَقمَ، وَهِي تَستَعجِلُهُ لإِنهَاءِ أَي حَدِيثٍ قَبلَ عَودَةِ زَوجِهَا.

بَعدَ عَودَةِ زَوجُهَا وَشوَشَ فِي أُذُنِ زَوجَتِهِ بِكَلِمَاتٍ، ثُمَّ أَرَادَ الجُلُوسَ، وَلَكِنَ الرَجُلُ قَرَّرَ العَودَةَ وَبِسُرعَةٍ، وَلَمْ تَنفَع تَوَسُّلاتِهِمَا بِالتَرَيُّثِ.

خَرَجَ الرَجُلُ الوَقُورُ، وَخُطُوَاتُهُ مُتَسَارِعَةٌ لِلوُصُولِ إِلَى سَيَارَتِهِ، حَتَى عَادَ إِلَى مَنزِلِهِ، وَهَوَ لا يُصَدِّقُ مَا تُرَاوِدُهُ مِنْ أَفكَارٍ وَتَوَقُّعَاتٍ، فَكَانَت أَفكَارُهُ كَالأَمْوَاجِ المُتَلاطِمَةِ، تَدُقُّ بِرَأسِهِ أَصوَاتٌ كَالبَرَاكِينِ، وَهُوَ يُقَلِّبُ كُلَّ الاحتِمَالاتِ مِنْ غَرَابَةِ مَا رَآهُ.

انفَرَدَ طَوِيلاً مَعَ نَفسِهِ، يَنفِثُ دُخَانَ سِيجَارَتِهِ بِسَقفِ الغُرفَةِ، مُتَأَلِمَاً، نَادِمَاً لِمُصَاحَبَةِ ذَلِكَ المَعتُوهِ، الذِي يَتَظَاهَرَ بِالبَرَاءَةِ وَالمَسكَنَةِ، رُغمَ أَنَّ الحَقِيقَةَ لازَالَ يَلِفُّهَا الضَبَابُ، فَبَقِيَ يُقَلِّبُ الأَحدَاثَ، وَصُورَةَ تِلكَ الجَمِيلَةَ القَابِعَةَ بِخَرِبَةٍ مُتَهَرِئَةٍ تَتَطَاوَلَ فَوقَهَا أَشبَاحُ البُؤسِ وَالعَدَمِ وَالحَاجَةِ، وَهِيَ لا تُبَالِي، تَملأُ وَجهَهَا ابتِسَامَةٌ مَرِحَةٌ.

صَبَاحِ اليَومِ التَالِي دَقَّ جَرَسَ هَاتِفِهِ، فَجَاءَ صَوتُهَا النَاعِمُ يُحَيِّيهِ بِحَرَارَةٍ وَاحتِرَامٍ غَيرِ مُتَوَقِّعٍ، وَبَعدِ كَلِمَاتِ الشُكرِ لِكُلِّ مَا أَبدَاهُ لَهُم، وَأَخِيرَاً، قَالَت:

ـ أَرجُو أَنْ تَسمَعَنِي بِانتِبَاهٍ، لَقَدْ رَأَيتُ فِي وَجهِكَ الوَقُورِ مَلامِحَ التَوبَةِ وَالتَقَرُّبِ مِنَ اللهِ، وَمَا لِصَفَاءِ نِيَتِكَ فِي مُسَاعَدَةِ المُحتَاجِين؛ فَأَقُولُ لَكَ أَنَّ اللهَ يُحِبُّكَ؛ فَأَنقَذَكَ مِنْ مَصِيدَةٍ رَسَمَت لَكَ لِلإيقَاعِ بِكَ، وَفَضحِكَ، وَمِنْ ثَمَّ ابتِزَازِكَ، وَمُطَالَبَتِكَ بِهَتكِ شَرَفِهِ، أَو رُبَّمَا يَتَّهِمَكَ بِاغتِصَابِ زَوجَتَهُ.

فَقَالَ لَهَا الرَجُلُ الطَيِّبُ:

.وَكَيفَ تَرتَضِين يَا ابنَتِي بِتَصَرُّفَاتِهِ؟!

قَالَت:

ـ أَنَا ضَحِيَةٌ لِتَمَرُّدِهِ وَجُنُونِهِ، فَكَانَ يُرغِمُنِي عَلَى مُمَارَسَةِ البَغَاءِ، وَبَيتِهِ وَكرٍ لِلدَعَارَةِ، فَإِنْ خَالَفتُهُ بِمُهِمَةٍ سَيَكُونَ مَصِيرِي القَتلَ وَبِدَمٍ

بَارِدٍ، وَيُلَفِّقَ لِمَقتَلِي أَلفَ حِكَايَةٍ مُفبرَكَةٍ، فَرُؤيَتِي لإنسَانِيَتِكَ وَطِيبَتِكَ هَيَجَت بِي بَقَايَا ضَمِيرَ؛ لإنقَاذِكَ مِنْ بَرَاثِنِ هَذَا الصَيَّادِ المُجرِمِ.

اهتَزَّ قَلبُهُ خَوفاً وَرُعبَاً، وَاستَغرَبَ أَنْ تَكُونَ الحَيَاةُ تَحوِي كَهَذَا الفَاسِقِ المَعتُوهِ، الذِي استَبَاحَ شَرَفَهُ مِنْ أَجلِ الكَسبِ الحَرَامِ، فَشَكَرَهَا وَأَثنَى عَلَى نَصِيحَتِهَا لَهُ، مُتَمَنِيَاً لَهَا التَوبَةَ وَالغُفرَانَ، وَدَعَا لَهَا بِالخَلاصِ مِنْ زَوجٍ جَائِرٍ فَاسِقٍ.

بَعدَ عَشرَةِ أَيَامٍ اتصَلَت بِهِ؛ تُحَذِّرُهُ أَنْ يُنكِرَ أَي مَعرِفَةٍ بِذَلِكَ الوَضِيعِ؛ لِمَا ارتَكَبَهُ بِجُرمٍ بِحَقِّ رَجُلٍ آخَرٍ، كَانَ حَسَنَ السُمعَةِ، غَرَّرَ بِهِ وَاستَدرَجَهُ لِمُرَافَقَتِهِ لِبَيتِهِ، كَمَا حَصَلَ مَعَ آخَرِينَ قَبلَهُ، حَيثُ تَجَنَّى عَلَيهِ بِفَضِيحَةٍ كَبِيرَةٍ؛ مُتَّهِمَاً إِيَاهُ بِالاعتِدَاءِ عَلَى شَرَفِهِ حَتَى التَحَمَ الرَجُلان بِشِجَارٍ سَالَت لَهُ الدِمَاءُ، حَتَى تَمَكَّنَ ذَلِكَ المِسكِينُ مِنْ الهَرَبِ.

ادَّعَى أَمَامَ الجَمِيعِ أَنَّهُ وَجَدَ ذَلِكَ الرَجُلَ مَعَ زَوجَتِهِ، الأَمرَ الذِي أَثَارَ غَضَبَ زَوجَتِهِ، وَغَدرِهِ بِهَا بَعدَ أَنْ اتَّهَمَهَا بِإِيوَاءِ عَشِيقَهَا، فَأَرَادَ أَنْ يَضرِبَ عَصفُورَين بِحَجَرٍ وَاحِدٍ كَمَا يُقَال.

أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ زَوجَتِهِ وَمِنْ كَسبِ المَزِيدِ مِنْ ذَلِكَ الرَجُلِ؛ بِمُقَاضَاتِهِ قَانُونِيَاً، مِمَّا حَدَا المَرأَةُ أَنْ تُقِيمَ عَلَيهِ دَعوَى الإضرَارَ بِشَرَفِهَا، وَفَضحِ نَوَايَاهُ لِلإيقَاعِ بِالكَثِيرِين.

بُهِتَ المِسكِينُ لِسَمَاعِ هَذِهِ المَعلُومَات، فَأَحَسَّ بِأَطرَافِهِ كَأَنَّهَا الخِرَقُ البَلِيلَةُ، التِي لا تَحمِلُهُ فَانهَارَ عَلَى كُرسِيٍّ، وَأَحَسَّ بِقَطَرَاتِ العَرَقِ تَجتَاحُ جَبهَتَهُ، رُغمَ بُرُودَةِ الجَوِّ، وَهُوَ يَلُوذُ بِالصَمتِ المُطبِقِ، وَمَاذَا يَتَحَدَّثَ بِمَوضُوعٍ مُخجِلٍ؟! فَشَكَرَ اللهَ الذِي أَنقَذَهُ مِنْ فَخٍّ قَذِرٍ، وَفَضِيحَةٍ قَدْ تَلتَصِقُ بِهِ مَدَى الحَيَاةِ.

obeikandl.com